
العوديسا الفلسطينية
خالد أبو خالد

The Palestinian Odyssey
The Poetry Works (Part 1)

العوديسا الفلسطينية
الأفعال الشعرية (الجزء الأول)

Khaled Abu Khaled

خالد أبو خالد

First Edition (2008)
All Rights Reserved ©

الطبعة الأولى (2008)
جميع الحقوق محفوظة (©)

Cover By : Nagham Halawani
Photo : Mohammad Hanoon

الغلاف: نغم الحلواني
صورة الغلاف : محمد حنون

Palestinian House of Poetry
Ramallah-Palestine

بيت الشعر الفلسطيني
رام الله - فلسطين



Tel : 2406956-2406957 Fax : 2406955
E-mail : ping@ping-palestine.org
Website : www.ping-palestine.org

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopy, recording, or any information storage and retrieval system, without the permission in writing from the publisher.

العهديسا الفلستينية

الأفعال الشعرية
(الجزء الأول)

خالء أبو خالء

الإهداء

إلى أهلي شهداء ومحاصرين
وثوار الغد الآتي

سَادَنُ أَحَدِ الثَّقَافَةِ الفَلَسْطِينِيَّةِ

بورتريه لكنعان الفتى⁽¹⁾

مُرَاد السُّودَانِي

رِيَا حُ لَفَاحَةٌ مُرَّةٌ التَّهَاولِ ، تَهَبُّ مِنَ الْمُتَوَسِّطِ الأَبْيَضِ . . فَيَطْفِئُ سَدِيمٌ
عَمِيمٌ تَرْتَجُّ لُهُ الرُّوحُ وَالْجَسَدُ الفَهْدُ الَّذِي يَنَاقِ بِأَنخِطَافِهِ الرِّوَاغَ مُتَجَاوِزاً
وَادي بَنِي زَيْدٍ . . هُنَاكَ وَعَلَى التَّلَالِ القَرِيبَةِ أَشَافَهُ قَرِيبةٌ دَيْرِ غَسَّانَةَ . .
النَّدَاهَةُ مِثْلَ زَيْتُونَا الذَّبِيحِ وَسَرُونَا الثَّكَلِ . . وَمَا بَيْنَ الدَّيْرَيْنِ . . دَيْرِ
السُّودَانَ (قَرِيْبِي) وَدَيْرِ غَسَّانَةَ⁽²⁾ أَكْثَرُ مِنْ عَلائِقِ قُرْبِي لَيْسَ أَوْلَهَا خِيْطُ
الأُرْجُوَانِ الَّذِي ائْتَمَدَّ مِنْذُ انْتِفاضَةِ العَامِ (1936) . . حَتَّى آخِرِ زَفْرَةٍ
لِلشُّهْدَاءِ بَرِصَاصِ الغَزَاةِ القُدَامِي المُحَدِّثِينَ . .

يَتَرَجَّلُ القَائِدُ القَسَامِيُّ مُحَمَّدٌ صَالِحُ الحَمَدِ وَالمَعْرُوفُ بِأبي خَالِدٍ . .
وَقبلَ عَامٍ يَشْتَقُّ كِنَعَانَ الفَتَى قِشْرَةَ الوُجُودِ مُعْلِناً بِرُوزِ سِرَاجٍ وَهَاجٍ . .
يَرِثُ البَطُولَةَ وَيُوشِمُ بِهَا إِلَى أَبَدِ الدَّاهِرِينَ . . هَا هُوَ الآنَ بَيْنَ يَدَيِ
جَدِّهِ الَّذِي يُحَدِّقُ فِيهِ قَائِلاً : لَنْ تَنْتَهِيَ الشُّورَةُ فَسِيَّاتِي جِيلٌ جَدِيدٌ يُجَدِّدُ
الفِعْلَ . . وَيَحْمِلُ الرِّايَةَ . . سَيَنْهَضُ كِنَعَانُ الفَتَى . . فَقَرَّبُوا مَرَبِطَ
الأَصِيلَةَ مِنْهُ . . وَتَبَدُّ الرِّحْلَةَ : فَرَسٌ لِكِنَعَانَ الفَتَى . .

يَسْبُ الثَّيْمُ المَعافَى مُحَجَّلاً بِارْتِ نَقِيٍّ وَجَوْهَرٍ نَضَّاحٍ بِالعِطَاءِ وَجَدْوَةَ
الفِعْلِ الجَسُورِ . . يَجُوعُ وَيَعْرِى . . يَجُوسُ خِلالَ البِلادِ . . كُلمًا
أَنْسَ سَكِينَةً رَمَتْهُ اللَّيالي بِناقِعِها الكَظِيمِ . . وَنَفَثَتْ زُؤامِها الرَّجِيمِ . .
حَتَّى ضَرَسَتْهُ التَّجَارِبُ وَعَضَّتْهُ الزَّمَانُ بِبابِ الحَرَمِانِ وَفَدَاحَةِ الفَقْدِ . .

فَحَجَل رَزْفُهُ الْحَلَالُ بِكَدِّ النَّحْلِ وَدَأْبِ النَّمْلِ . . . وَمَا تَزَلَّ عَلَانُهُ الْعَصْفُ
 عَلَى نَعْلَيْهِ الْكَرِيمَيْنِ . . . الَّتِي قَشَّرَ طُفُولَتَهَا حَتَّى الدُّهُورِ . . . فَاصْلَبَتْ
 كَنَعَانُ الْفَتَى . . . يَتَعَهَّدُهُ الْمُعَلِّمُ الشَّهِيدُ الشَّاعِرُ عَبْدِ الرَّحِيمِ مَحْمُودُ . . .
 الَّذِي يَتْرُكُ كَرِيمَ السَّجَايَا وَطَيِّبَ الْفَعَالِ عَلَى تَجْرِبَةِ الْفَتَى . . . فَيَتَنَاوَى
 الرَّمَزُ فِي مَنَاسِجِ التَّأْمُلِ وَمُنْعَقَدِ الرُّؤْيَا . . . بَطْلَانٍ فِي رُوحِ الْفَتَى :
 الْوَالِدُ الشَّهِيدُ وَالشَّاعِرُ الشَّهِيدُ .

فِي غَيْرِ مُعْتَرَبٍ يَحُوسُ الْفَتَى . . . يُوْغَلُ فِي الْحَيَاةِ فِعْلًا . . . وَتَوَغَّلُ فِيهِ
 الْحَيَاةُ حَكْمَةً مُقَطَّرَةً مِنْ مَخْلَبِ الصَّفْرِ . . . دَارَتْ بِهِ الْمَنَافِي وَدَوَّرَهَا
 كَالْجَمْرَةِ فِي الْكَفِّ وَدَارَ بِهَا . . . أَخَذَتْ مِنْهُ هِنَاءَ الرِّضَى وَالْقَبُولِ . . .
 وَأَخَذَتْ مِنْهَا لَذَاذَةَ الْكَدْحِ وَمَرَارَةَ الصَّبْرِ . . . وَتَحَارِيْقَ الْبَيْدَاءِ الَّتِي صَفَلَتْهُ
 فَارِسًا مُتَقَحِّمًا مُعَانِدًا . . . نَدَا مُقْلُودٌ «الْوَجْهَ وَالْيَدَ وَاللِّسَانَ» .

فِي كِتَابِهِ «أَسِيرُ عَاشِقٍ» . . . يَدْرُزُ الشَّاعِرُ وَالْمَسْرُوحِيُّ الْفَرَنْسِيُّ جَانَ جِينِيهِ
 عَبَاةً مُفَضَّضَةً لِكِنَعَانَ الْفَتَى . . . الْأَسِيرُ الْعَاشِقُ . . . وَالرَّائِي الْعَنِيدُ
 . . . إِنَّهَا الْأَغْوَارُ نَاغِرِيَّةُ الْعَمَلِ الْفِدَائِيِّ . . . وَتَنَاوِيحُ أُيْلُولِ . . . يَوْمِيَّاتٌ
 ذَابِحَةٌ وَتَفَاصِيلُ لَوَاعَةٍ . . . وَرَهْبُوتٌ يَحِكُ الدِّكْنَةَ فَتُضْيِئُ وَلَوْ لَمْ
 يَمْسَسْنَهَا نَارٌ . . .

يَنْهَضُ «عُولَيْسُ النَّقِيضِ» . . . الْمَهْجُوسُ بِالْتَّرْحَالِ وَالْمُتَدَثِّرُ بِصَبَا النَّشِيدِ
 الْحَرْبِيِّ . . . فَيَنْعَقِدُ قِرَانَ الشُّعْرِ وَالْبُنْدُقِيَّةِ . . . فِي صَهْدِ الْإِلْتِحَامِ وَحَجَلَانِ
 الْمَوْتِ وَالرَّقْصِ الْفَاتِكِ .

مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَى أَرْبَعِينَ عَامًا وَكِنَعَانُ الْفَتَى يَجْهَدُ فِي مَشْرُوعِهِ الشُّعْرِيِّ
 مُصَوِّبًا فَوْهَةَ الْكَلَامِ نَحْوَ الْعَدُوِّ الَّذِي نَازَلَهُ الْفَتَى بِفَوْهَةِ الْبُنْدُقِيَّةِ . . .
 وَأَطْلَقَ قَلْبَهُ قَدِيفَةً لَاهِبَةً تَدُقُّ جُدْرَانَ صَمْنَتِنَا الْخَائِرِ الْمَلْغُومِ . . . لَمْ تَتَّغَيَّرْ

بوصلة الفتى فوجهتها الترابُ الحرُّ . . الثابت فلسطين . . إماماً فلسطين
وإماماً فلسطين . . نشيدُ الفتى اليومي . . وهجاسُ قلَمه الحربي . .
يُعلي الكلامَ على أسنةِ الرؤيا الوقادة . . ويتشوّفُ الغدَّ . . هو الذي
قد رأى . . وكابدَ وعاندَ وشَفَّ وشاف . .



في سيرته التماعاتُ مقاتلٍ وريشةُ فنّانٍ ورؤيا شاعرٍ وسعَ حُقولَ الواقعيةِ
الثوريةِ بمطولاته الشعريةِ .

البطولةُ مكابدةٌ بامتياز . . خطرٌ كلُّها . . مُراقصةُ الموتِ واللَّهُو بمعاذِفه
ورنين حُجوله العاتيات . . في فلسطينَ البطولةُ خبزٌ يومي . . خبرٌ
يومي . . عاجلٌ أو يكاد . . تمارينُ الصغارِ على حواجزِ النار . .
وأفواسُ الفتيّةِ المشدودةِ بأعصابِ القلوبِ المتقادحةِ شرراً وشجاعة . .
وحكمةُ الأجدادِ : لا يحترثُ الأرضُ إلا بنوها . . ولا يرثُ الأرضُ
إلا الجديرون بها . . الرُّماةُ الأباة . . سُرأةُ القولِ والفعل . . هنا في
فلسطينَ البطولةُ واجبةُ الوجود . . فهي شرطُ الكرامةِ في ظلِّ مشارِطِ
الجلادين . . والبطلُ نسغُ البلادِ الأعلى والأعلى . .

كلّما ترَجَّلَ البطلُ من الصوِّرةِ عادَ إليها في تناوبِ عبقرِيٍّ لسباقِ المنازلةِ
القدِّ، يُحدِّقُ البطلُ في الواقعِ والوقائع . . ويقترحُ جماليّاتٍ عُليا
لأرواحٍ متجاوزةٍ ترفضُ الانكسارَ والتلطيُّ الزائف . . وتدينُ مُستكذِّبِ
الخصالِ ومُستجمعاتِ القُبْحِ الكابيةِ . . البطلُ رديفُ الحريةِ والجمالِ
وخفقِ الندى . . ودقَّةُ الموجِ الحلو . . يُعلنُ الخروجَ إلى براحِ المواجهةِ
. . ويُدوي بِبلاغِ الحربِ . . ويرتاحُ في لُجَّةِ الموجِ . . البطلُ دَوْرُه أن

يكون كذلك .. بطلاً .. رمحاً .. ندأً .. متجاوزاً .. أبياً .. عفيفاً ..
 .. جمره نزال .. وجمهرة سباع صائحة . عندما يتخلى البطل عن
 دوره يسقط في العادية .. ومرذول الواقع .. فيقع فريسة للمتداول
 والعادي والمأنوس .. صيداً سهلاً يصير .. يتحول من صياد إلى
 صيد ..

يواصل كنعان الفتى تربية البطولة ويتعهد بها بدمع العين وحببة القلب
 ويذنبها من منازل النجوم ومراكد الغيم .. فتكون أولى عطايها : «وسام»
 على صدر المليشيا . يتبعها ب «نقوش محفورة على مسلة الأشرافية»
 .. ثم «تعريية خالد أبو خالد» .. ويعلو النشيد ب «أغنية حب عربية»
 إلى هانوي «حتى نسمع غرغرة الجدل في منتصف الليل» .. وها هو
 يعلن «وشاهراً سلاسل أجيء» .. ثقفاً جديداً .. وثقفاً بالرفض
 والعناد .. ولأن «بيسان في الرماد» والبلاد على مسن القتل ، يطلق
 غريده البحري : «أسميك بحراً .. أسمي يدي الرمل» .. ويرتب
 أولوياته : «فرس كنعان الفتى» .. فنرى دماً يشخب نخلاً فإذا به :
 «دمي نخيل للنخيل» ..



والتقيه في بغداد العام (2000) في فندق المنصور لمناسبة انعقاد مهرجان
 المرشد الشعري .. يهديني ديوانه «رُمح لغرناطة» : إلى شعبنا العظيم ..
 التوقيع : الوطن العربي .. «غرناطة بحاجة إلى رُمح لاستعادتها ..
 أليس كذلك !» ورشقني بأبتسامة المقاتل وشاعريية البحر .
 ويتواصل عزيز كنعان الفتى بـ «معلقة على جدارية مخيم جنين» ..

لَتَتَوَاتَرَ فَيُوضَاتِ وَمُطَوَّلَاتِ النَّسَجِ الشَّعْرِيِّ الْهَادِرِ . . نَحْوَ فِضَائِ
تَأْصِيلِ الْوَجَعِ الْعَامِ وَتَكثِيفِ مَرْمُوزِهِ الْجَامِعِ . .



نَشْلًا قَوْلُهُ كَنَعَانَ الْفَتَى . . بَيْنَ حَاءِ الْحُبِّ وَحَاءِ الْحَرْبِ تَدَاخُلُ الْقَصِيدَةُ
بِمَاوِيَةٍ مُفَضَّضَةٍ وَطِيَالِ إِيقَاعِيَّةٍ جَارِفَةٍ . . يَقُودُنَا الْإِيْقَاعُ فِي انْخِطَافَةٍ
بَرَقَ الْكَلَامُ مَحْمُولًا عَلَى تَفَاصِيلِ بِلَادِنَا وَالدَّرْعَلَاتِ الصَّدَاحَةِ فِي
فِضَائِنَا الرَّعْوِيِّ . . بَدُفُوفِ ذَهَبِيَّةٍ وَطُبُولِ حَرْبٍ رَاعِدَةٍ يَسُوقُ كَنَعَانَ
الْفَتَى قَوَافِلَهُ الشَّعْرِيَّةَ . مُنَمَّنَاتٌ تَتَوَاشَجُ فِيهَا الدَّرَجَةُ الْفَلَسْطِينِيَّةُ
وَعَصْفُ الْمَوَائِلِ بِفَضِيحِ النَّشِيحِ وَالتَّحَدِّيِّ الْعَاتِي . . تَتَوَالَدُ الْمُفْرَدَاتُ
سَاحَتَهُ سُخُونَهُ بِلَادِنَا الَّتِي يَغْلِي مَرَجُلُهَا الثُّورِيُّ مُنْذُ مَا يَزِيدُ عَلَى الْقَرْنِ
. . وَمَا خَبَتِ نَارُهَا أَوْ هَمَدُ أَوَّارُهَا ، بَلْ هِيَ فِي شُبُوبِ عَارِمٍ . . لَا
تَتَغَلَّقُ قِصَائِدُ كَنَعَانَ الْفَتَى عَلَى فِلَسْطِينَ إِلَّا لِتَنْفَتِحَ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ فِي
اِكْتِمَالِهَا . . إِذْ هِيَ انْفِتَاحٌ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَالْجَمَالِ وَالْعَدْلِ وَالْحُبِّ وَالْحَيْنِ
الْجَارِفِ . . وَالْوَفَاءِ لِأَسْرَابِ الْقَطَا وَمَدَارِجِ الْغُزْلَانِ فِي الْوُدْيَانِ وَأَعَالِي
النَّشِيدِ وَسَنَابِكِ الْأَعْنِيَاتِ الطَّاحِنَاتِ . .

فِي انْغِلَاقِ الْقَصِيدَةِ مَدَى رَحْبٍ بِاتِّسَاعِ فِلَسْطِينَ وَرَحَابَتِهَا الْفَارِهِةِ . .
فِضَاءٌ يُفِضِي إِلَى شُمُولِيَّةٍ نَاجِزَةٍ وَبِرِّ مَفْتُوحٍ عَلَى الْعَالَمِ يُفِيضُ جِسَارًا
وَحُنُورًا بِادْخَا يُبْلِقُ بِإِنْسَانِيَّةِ الشَّاعِرِ الْمُحَارِبِ . . الَّذِي يَنْعَفُ الْجَمَالِيَّاتِ
وَيَنْحَازُ لِلطَّيْرِ وَلِلخُضْرَةِ وَحَنَاءِ الْبِلَادِ وَرِنْدَحَاتِ الرُّعْيَانِ عَلَى جِبَالِنَا
الْعَالِيَاتِ . بَيْنَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ يُطْلَقُ كَنَعَانَ الْفَتَى مِنْ أَكْمَامِ الْقَصِيدَةِ
كَوَأَسْرِ اللَّغَةِ وَمَخْلِبِيَّاتِ النَّزَالِ فِي مُنَاضِلَةِ الْكَلِمَةِ الْحَرْبِيَّةِ وَصَفَاءِ قَلْبِ

المُحَارِبِ الذِّي تَنعَكِسُ فِي مَرَايَاهُ فَضَائِلُ الشُّهَدَاءِ ، فَصِيدُنَا العُلْيَا . .
وَنَصْنَا المَكْتُمِل . .

لَقَدْ عَانَتْ القَصِيدَةُ الفِلَسْطِينِيَّةُ مِنْ تَنْظِيرَاتِ نَقْدِيَّةِ كَسِيحَةٍ . . وَجَدَتْ
فِي الأَدَبِ المُلْتَزِمِ مَدَمَّةً وَعَيْباً دَامِغاً . . لَتَرَفَّعَ مِنْ شَأْنِ الهَامِشِيِّ وَمَا
شَاكَلَ . . فَتَطْلُقُ أَكْثَرِيَّةُ الهَامِشِ شِعَاراً لاسْتِدْرَاجِ القَصِيدَةِ إِلَى أَفْصَاحِهَا
. . فَتَصْنَفُهَا بِتَوْصِيفَاتِ سَافِرَةٍ . . فِي عُرْبِهَا شَرَفٌ مُسْتَبَاحٌ . . وَلِأَنَّهَا
فِلَسْطِينِ مَنصَّةُ الإِطْلَاقِ الأَجْمَلِ . . فَهِيَ تَحْتَاجُ لِمَنْ يَقُولُ قَوْلَهَا
المُقَدَّسَةَ . . قَوْلَةَ الحَقِّ وَالحَقِيقَةَ فِي مُنَازَلَةِ التَّقْيِضِ الذِّي يَعْدِلُهَا سِيَاقَاتِ
المَوْتِ وَالإِلْغَاءِ الزُّوَامِ . . إِذَا لَمْ يَقُلِ الشَّاعِرُ هَاجِسَ البِلَادِ وَصَرَخَاتِ
الشَّجَرِ النَّدَابِ . . وَأَهْوَالِ الفَقْدِ اليَوْمِيِّ !! إِذَا لَمْ يَرَفَّعْ كُلَّ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ
عَلَى قَرْنِ الجَمَالِيَّاتِ وَمُرْتَكِزِ المَجَازِ . فَأَيُّ نَصٍّ سَيَكُونُ حَقِيقِيًّا إِذَا !!
أَمْ هُوَ الزَّيْفُ . . أَمْ لُبُوسُ قِصَائِدِ خَلْبِيِّ ، يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً . . لِأَبْدَ
مِنْ مُرَاجَعَةِ مَقُولَاتِ مَعْشَرِ النُّقَادِ الذِّينَ بَجَهْلِهِمُ الذَّبَاحِ حَرَفُوا البُوصَلَةَ
عَنْ جَوْهَرِهَا وَوُجْهَتِهَا . . فَوَقَعَتْ فِي الشُّوَيْشِ البَاهِتِ . . وَقَشَلْنَا
فِي كِتَابَةِ الحِكَايَةِ . . حِكَايَةَ البِلَادِ المُشْبَعَةِ فَجِيعَةً وَوَيْلَاتٍ وَدَمْعاً
رَاعِفاً . .

لَقَدْ اسْتَطَاعَ كَنَعَانُ الفَتَى أَنْ يَخْلُقَ سِيَاقَهُ الشُّعْرِيَّ المُخْتَلَفِ . . فَكَتَبَ
خُطُوتَهُ حِكَايَتَهُ / حِكَايَتَنَا . . وَبِاقْتِدَارِ تَامِّ قَدَمٍ نَمُودَجًا لِلشَّاعِرِ الفَارِسِ
. . فِي زَمَنِ غَابَ عَنْهُ الفُرْسَانُ . . وَنَمَتِ الوُرُودُ عَلَى فُوهَاتِ البَنَادِقِ
. . وَعَلَى الرَّغَمِ مِنْ حَالَةِ التَّرَدِّيِّ وَالنُّكُوصِ وَسُوءِ المُنْقَلَبِ . . إِلاَّ أَنَّ
ثَمَّةً مَنْ يَزَالُ يُمَسِّكُ زِمَامَ خِيُولِ الشُّعْرِ وَيَنْدَفِعُ بِهَا فِي رَهَجِ المَعْرَكَةِ
وَغِبَارِهَا الدَّفَاقِ . . وَهَكَذَا أَصْبَحَ كَنَعَانُ الفَتَى نَمُودَجًا لِلشَّاعِرِ المُحَارِبِ

الَّذِي يُرَكِّزُ رُوحَهُ عَلَى أَحَدِ الثَّقَافَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ غَيْرِ رَوَّاعٍ وَلَا رَجَافٍ . .
بِقَلْبِ ذَكِيٍّ وَنَصِّ نَقِيٍّ مِنْ شَوَائِبِ الْكُؤُوبِ وَرَطَانَةِ الْأَدْعِيَاءِ . .
وَجُلَاسِ الْكِرَاسِي فِي الْكُؤُورِثِ . . وَالْكَؤُورِثِ فِي الْكِرَاسِي . . أَوْ
كَمَا قَالَ . .

نَصُّ كَنْعَانَ الْفَتَى عَصِيٍّ عَلَى الْإِنْكَسَارِ وَالتَّشْطِي . . مُفْتَحَمٌ عَلَى الدَّوَامِ
لَهُ شَهْوَةٌ الْبَرِّقِ وَنَفَادُ الْبَصِيرَةِ الدَّاهِمِ . . صَلَبٌ فِي زَمَنِ رَخْوٍ . . خُلِقَ
لِزَمَنِ غَيْرِ زَمَنِهِ هَذَا الْكَنْعَانُ الْفَتَى . . الَّذِي جَعَلَ مِنَ «الْعُودِيْسَا»
أَسْطُورَةَ الْفِلَسْطِينِيَّةِ ، فَحَمَلَ فِي جَسَدِهِ الرُّمْحَ ، الْقُرَى وَالتَّشَاوِيقَ
وَالْبُكَايَاتِ وَتَرَاوَيْدَ الْجَبَلِ . . وَمُسَامِرَةَ النُّجُومِ وَغَنَّةَ الْحَجَلِ الْبَرِّيِّ . .
فَرَشَحَتْ مِنْ صُورَتِهِ طُيُورَ النَّارِ . . وَبَرَجَمَاتُ الْغَوَافِي . . يَقْطَعُ هَذَا
الْفَارِسُ الْفَتَى الْعُمَرَ بِجُمَاعِ الصَّبْرِ وَإِرَادَةَ الْمُحَارِبِ وَعِنَادَ الْمَاءِ . .
وَيَضْرِبُ فِي التَّيِّهِ وَحِيداً وَغَرِيباً فَيُنْفَتِحُ عَلَى الْمُقَدَّسِ . . يُسَطِّرُ الْمُحَارِبُ
الشَّهْمُ «الْعُودِيْسَا» الْفِلَسْطِينِيَّةِ ، وَيُصِرُّ عَلَيْهَا . . عَوْدَةً كَامِلَةً غَيْرَ
مَنْقُوصَةٍ مِثْلَمَا هِيَ فِلَسْطِينِ كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ . . أَوْ لَيْسَ هَذَا هُوَ
الثَّابِتُ الثَّقَافِيُّ فِي خِضَمِّ مُتَغَيِّرَاتِ الْمُمَكِّنَاتِ النَّاهِبَاتِ !! وَتَبْرِيرَاتِ
الْمُسْأَلَتَيْنِ الْكُتْبَةِ .

«الْعُودِيْسَا» - بِمَا تَزَخَّرَ بِهِ مِنْ قِتَادِ الْبِلَادِ وَغُرْبَةِ الدَّرْبِ وَقَلَّةِ الزَّادِ -
هَاجِسُ كَنْعَانَ الْفَتَى ، تَفْتَحُ الطَّرِيقَ ذُرَاعِيهَا مُسْتَقْبِلَةَ الْمُحَارِبِ : يَا هَلَا
. . بِالْبَرِّ الْغَاضِبِ . . عَوْجُ بَنِ عِنَاقِ الْفِلَسْطِينِيِّ ، الَّذِي رَغِبَ فِي
عِنَاقِ فِلَسْطِينِ ، وَعَافَ الرَّغَائِبَ وَالرَّاعِغِينَ لِعَيْبِهَا . .



رُبَّمَا يَشُقُّ «عَوْلَيْسَ النَّقِيضِ» عَجَاجَ النَّهْرِ نَحْوَ «العَوْدَيْسَا» الحُلْمِ . .
 ورُبَّمَا تَظَلُّ الطَّرِيقُ عَلَى حَالِهَا شَائِكَةً مُوَعَلَةً فِي النَّأْيِ . . ورُبَّمَا
 تَتَرَاءَى البِلَادُ قَابَ لِقَاءٍ وَأَبْعَدَ . . وَلَكِنَّهَا حَاضِرَةٌ تَظَلُّ . . يَتَقَرَّاهَا هَذَا
 العَوْلَيْسَ النَّقِيضِ . . وَيَدْفَعُ بِالمَجَازِ نَحْوَ وَاقِعٍ أَكْثَرَ احْتِمَالاً . . وَيَبْقَى
 الأَنْتِظَارُ أَنْتِظَاراً وَالحُلْمُ حُلْمًا . . وَتَبْقَى فِلَسْطِينِي مُتَحَفِّزَةً لـ «عَوْدَيْسَا»
 أَكِيدَةً، حَتَّى تَدُورَ المَفَاتِيحُ فِي الأَقْفَالِ العَتِيقَةِ .
 قُلْ هِيَ التَّرَاجِيدِيَا النَّضَاحَةَ بِالفَوَاجِعِ وَالتَّرَفُّ تَلْفُ هَذَا «العَوْلَيْسِ» الَّذِي
 قَدَّ عَمْرَهُ وَمدَّه جِسْرًا لِلوُصُولِ . وَوُصُولًا مُتَقَطِّعًا نَرَاهُ . . وَوُصُولًا يَبْحَثُ
 عَنْ أَكْتِمَالِهِ . .



الأَنْبِيَاءُ وَحِيدُونَ وَغُرَبَاءُ . . قَالَ كَنَعَانُ الفَتَى . . وَهُوَ بِذَلِكَ يُحِيلُ
 إِلَى سِيَاقِ الأَسْثِنَائِيِّ وَالنَّادِرِ . . رِكَازِ البِلَادِ وَرِكَيزَتِهَا وَنُقْطَةَ ارْتِكَازِهَا
 وَمَعْدِنَهَا المُصَفَّى . . إِحَالَةً لِلأُسْطُورَةِ وَمَحْضِ التَّشْكِيلِ وَكَذَلِكَ الصِّيَاغَةِ
 وَهِيَ وَلى الخَلْقِ . . لِلأُسْطُورَةِ يَحْيَا . . وَفِي الأُسْطُورَةِ . . فِي جَيْبِ
 قَمِيصِهِ الكَاكِي رُفَى الفُرْسَانَ الشُّهَدَاءِ وَقُمُصَانَ الدَّمْعِ . . تَتَخَلَّقُ
 التَّفَاعِيلُ فِي تُرْبَةِ البِلَادِ الخَضْرَاءِ . . فِي مُعَاوَدَةٍ لِتَجْدِيدِ الأَنْبِعَاثِ . .
 وَتَأْكِيدًا عَلَى الثَّابِتِ فِلَسْطِينِ بِمَحْمُولَاتِهَا التَّضْحَوِيَّةِ وَسِيَاقِهَا البَانِعِ
 الوَارِفِ فِدَاءً وَإِبَاءً . . مُتَأَخِّرَةً هَذِهِ القِصَائِدُ تُخْرُجُ مِنْ فِلَسْطِينِ لِتَعُودَ
 إِلَيْهَا فِي مَدَارِ الأَتْسَاعِ وَالفَيْضِ الكَرِيمِ لِتَوْسِّسِ لِخِطَابِ شِعْرِيَّةِ الفُرْسَانَ
 . . فَمَا مَعْنَى الكِتَابَةِ خَارِجِ الصَّرَاعِ !! فَلَمْ تَنْتَهِ الطَّرِيقُ بَعْدَ . . وَمَا زَالَ

الفلسطينيُ ضَيْفٌ مُتَّصِفُهَا ، الحائِرُ . . والحائِكُ لِعِبَاءَةِ الفَجْرِ والْعَوْدَةِ
النَّاجِزَةِ . . البُنْدُوقِيَّةُ قَلَمٌ كَنَعَانَ الفَتَى والرِّيْشَةُ بَيْرِقَانٌ لِكِتَابَةِ الطَّرِيقِ . .



البلادُ غَارِقَةٌ فِي رَدَمِ الأَسَى وَحَسَكِ الطُّغْيَانِ . . والثَّقَافَةُ غَرِيبَةٌ . .
وَذَاهِبَةٌ نَحْوُ تَغْرِيبِ غَرِيبٍ . . فِي حِمَاةِ ذَلِكَ نَمْسِكُ بِتَغْرِيبَةِ خَالِدِ أَبُو
خَالِدٍ ، عَوْدِيسَا الفِلَسْطِينِيِّينَ لِنَرْفَعِ الأَرْوَاحَ الحَفِيفِضَةَ نَحْوَ سَمَاوَةِ الجَسَارَةِ
وَبِلَاغَةِ الكِبَارِ . . وَفَضَائِلِ الأَكْرَمِينَ . . وَهَا نَحْنُ نُرَدِّدُ مَعَ زَيْنِ الشَّبَابِ
وَفَارِسِ الفُرْسَانِ خَالِدِ أَبُو خَالِدٍ : أَحَدٌ . . أَحَدٌ . . فِلَسْطِينِ . . أَوْ
فِلَسْطِينِ . . حَتَّى فِي زَمَنِ الانْكَسَارِ . . خَالِدِ أَبُو خَالِدٍ نَحْلَةُ فِلَسْطِينِ
العَالِيَةِ وَقَوْسُنَا الجِمَالِيُّ الأَشَدُّ . . يَا مِيجَنَا أَبُو خَالِدٍ . . يَا مِيجَنَا فِلَسْطِينِ
. . اللّهُمَّ فَاشْهَدْ . .

الفتاح من كانون الأول من

العام الثامن بعد الألفين

الهوامش:

(1) سيرةُ الشّاعرِ المحاربِ : تروى خالداً محمد صالح أحمد، على ضريح أبيه القائد القساميّ
الشهيد (أبو خالد) نشأ الشّاعرُ خالد أبو خالد، المولودُ في قريةِ سيّلةِ الظّهْرِ (قضاء جنين) سنة
(1937)، وقد كَفَلَهُ فِي طُفُولَتِهِ جَدُّهُ لِأُمِّهِ رَجُلٌ الدِّينِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ يَوْسُفِ عَبْدِ القَادِرِ فِي قَرْيَتِهِ
الجَمِيلَةِ، الَّتِي تَقَعُ عَلَى تَلَةٍ فِي مُنَحَدَرٍ يَصِلُ أَحَدَ وَدِيَانِهَا بِالبَحْرِ الأَبْيَضِ المُوسَّطِ عِبْرَ وادي (مصين)
الَّذِي تَرْتَفِعُ قَوْفَهُ مَنْطِقَةُ «هَيْش» تَعَرَّفَ إِلَى الطَّبِيعَةِ عِبْرَ كُلِّ فُصُولِ السَّنَةِ، وَاسْتَمَعَ إِلَى صَوْتِ
الشَّبَابَةِ والأَرْغُولِ، وَأَجْرَاسِ الغَنَمِ والبَقْرِ، وَصَوْتِ سُقُوطِ المَطَرِ عَلَى سَطْحِ (البَرَاكِيَةِ) الَّتِي كَانَتْ
يَسْكُنُهَا مَعَ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ الوَحِيدَةِ، وَأَحَبَّ المَطَرَ الَّذِي يُعْرِقُ أَرْضَ القَرْيَةِ بَيْنَ حَوَارِيهَا وَأَرْقَتِهَا،
عَلَى أَسْطِطْحَتِهَا وَأَشْجَارِهَا، وَفِي حَقُولِهَا حَيْثُ تَعَرَّفَ إِلَى الفَلاَحِ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي طُفُولَتِهِ . عَاشَ
أَفْرَاحَ القَرْيَةِ، وَأَحْزَانَهَا، وَاسْتَمَعَ إِلَى العَنَابِ، وَالمِيجَانِ وَالدَّلْعُونِ، غَنَّاها مَعَ النَّاسِ فِي اللَّيَالِي،
وَشارَكَ قَرْيَتَهُ أَحْزَانَهَا فِي المَاتَمِ، رَافِقُ النَّاسِ إِلَى المَقْبَرَةِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى مُرْتَفَعٍ قَرِيبٍ، قُبَيْلِ العُرُوبِ،

أو في الصباح الباكر لزيارة الموتى والشهداء. أهال بيده التراب على عذة حفر غيبت في أعماقها المظلمة رجالاً ونساءً، تعرّف إلى المغاربة الذين كانوا يحملون في أكياسهم كتاب (شمس المعارف الكبرى) ويأتون إلى القرية بحثاً عن كنوز مرعومة، أو لإخراج الجن من أجساد التمساء بالعصي والشعوذة.

كان محباً لزيارة صريح (لاوين) حيث مدفن أحد أبناء يعقوب ومدفن للشهداء الذين كان بينهم أبوه الذي استشهد في معركة دبر غسانة العام (1938). وكان محباً للرسم يرسم على البيادر، على الأرض وقرب العين. وعلى دفاتره وكتبه وحقيته الحشبية، على الجدران الحشبية للبراكبة وعلى مسطبتها الإسمتية الملاء، وعلى إسفلت الشارع العام الذي يربط القرية بمدينتي جنين و نابلس، فهي تقع في منتصف المسافة تماماً بين المدينتين، ظلت القرية عالمة الكبير المتسع للحرب والسلم وجهاز الراديو، والجريدة، والمجالس الشتائية الشعبية، وصندوق الدنيا، والحادي، والبيطار والقطار الذين يتوافدون للقرية، وكان هو معهم يرافقهم، يكتسب معرفة بتفاصيل ما يقومون به، وكان هناك، أيضاً، مدرسة القرية ومدرستها، لكن العامل الأول في تكوين الفتى كان الأب الشهيد محمد صالح الحمد، أحد القساميين الخمسة الأوائل الذي تتحدث القرية عن بطولاته وإخلاصه للثورة. إذا كان ثمة بطل يقتدي به، ويحفظ الحكايات التي تروى عنه حتى أنه كان يتخلل صورته وكأنه يعرفه ويراه في نفسه. يأتي المهتمون بأبناء الشهداء، وينقلونه إلى (كلية النجاح الوطنية) في نابلس حيث تابع دراسته الابتدائية في الصف الثاني الابتدائي وأوائل الأربعينات، ولأول مرة تعرّف إلى المظاهرات، فقد كان الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود واحداً من المدرسين في تلك المدرسة، واعتبر خالد ولداه، فهو رفيق لأبي خالد في الثورة الفلسطينية، وهكذا مثل عبد الرحيم محمود دور الأب الثاني لخالد بعد وفاة جده لأمه. وفي العام (1948) التحق الأستاذ أبو الطيب مع بعض الطلاب من الصفوف العليا بجيش الإنقاذ لكنه عاد بعد ذلك إلى قريته حيث علم باستشهاد أستاذه الشاعر عبد الرحيم محمود في معركة الشجرة فعاش في ضمير خالد بطلان انضم إليهما ثالث هو الشهيد عبد القادر الحسيني الذي رآه مرة واحدة حينما زار القرية العام (1948).

التحق خالد مرة أخرى بمدرسة القرية حتى أنهى الصف الابتدائي السابع، ثم بدأت رحلته الثانية مع الحياة حيث سافر إلى عمان، فعمل في عدد من المهن لمدة عام كامل، عاد بعدها إلى القرية دون فائدة تذكر، ثم ما لبث أن غادر إلى سورية حيث عمل في الجزيرة معاوناً لسائق محراث زراعي (تراكتور) لكنه عاد إلى قريته بعد شهر مروراً بسجن درعا بسبب مخالفته للإقامة وشروط العمل، ثم توجه إلى الكويت حيث عمل ميكانيكياً ثم عامل (سنترال)، بعد ذلك اشترك في مسابقة للمدعين في إذاعة الكويت ففاز بالمرتبة الأولى، وعمل محرراً في مجلة الإذاعة ومساعد رسام فيها، ثم ما لبث أن أصبح مسؤولاً للبرامج الثقافية في التلفزيون بالإضافة إلى قيامه بإعداد وتقديم عدد من البرامج الثقافية والإذاعية والتلفزيونية.

اتصل بالسياسة في منتصف الخمسينيات، غير أنه لم يسهم بأبعد من المظاهرات، إلا بعد العام (1960) حين شارك بعض أصدقائه بتأسيس (حركة طلائع الثورة العربية) التي كانت منها حركة طلائع تحرير فلسطين. اعتقل في الكويت العام (1966) ورحل إلى سوريا، فعمل في الإذاعة والتلفزيون بدمشق وتولى مسؤولية عذة أقسام، ثم ما لبث أن استقال بعد عنوان حزيران العام (1967) والتحق بالثورة الفلسطينية (حركة فتح) فداثياً مقاتلاً، ثم ارتقى في مهماته حتى أصبح نائباً لأمير القطاع الأوسط فالشمالي حتى أيلول (1970) حيث أصبح قائداً عاماً لميليشيا الثورة الفلسطينية في شمال الأردن. في العام (1972) انتخب عضواً في الأمانة العامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في المؤتمر التأسيسي، وظل عضواً في هذه الأمانة لدورتين متتاليتين حتى العام (1980) حيث انتخب أميناً لسر الاتحاد (فزع سوريا) ينشط حالياً في المجال

الأدبي، فَيُسَمُّهُمُ فِي الصَّفَحَاتِ الثَّقَافِيَّةِ وَالذُّورِيَّاتِ العَرَبِيَّةِ الفِلَسطينِيَّةِ، وَهُوَ عَضُو هَيْئَةِ تَحْرِيرِ مَجَلَّةِ (الكَاتِبِ) الفِلَسطينِيَّ وَعَضُو لَجَنَةِ العَمَلِ النَّقَابِيَّةِ، انْتُخِبَ آخِرًا فِي مُؤْتَمَرٍ لِإِعَادَةِ بِنَاءِ الأَتِّحَادِ كَعَضُو فِي الأَمَانَةِ العَامَّةِ مِنْ جَدِيدٍ.

(2) مُحَمَّد صَالِحُ الحَمْدِ (أَبُو خَالِدٍ) : وُلِدَ فِي قَرْيَةِ سَيْلَةِ الظَّهْرِ مِنْ أَعْمَالِ جَنْبِنِ العَامِ (1913م). وَلَمَّا اسْتَدَّتْ سَاعِدَهُ نَزَلُ حَيْفَا التَّمَاسَا لِلرُّزْقِ. وَفِيهَا التَّحَقُّ بِجَمَاعَةِ الشَّهِيدِ الشُّيْخِ عَزِّ الدِّينِ القَسَّامِ. وَفِي ثَوْرَةِ العَامِ (1936) أَخَذَ بِهَاجِمِ الأَعْدَاءِ فِي جِبَالِ الجَلِيلِ وَحَيْفَا. ثَمَّ نَزَلَ جِبَالِ نَابِلَسْ وَفِيهَا أَخَذَ مَعَ إِخْوَانِهِ المَجَاهِدِينَ بِخَوْضِ المَعَارِكِ ضِدَّ القَوَافِلِ اليَهُودِيَّةِ وَالقَوَاتِ البَرِيطَانِيَّةِ الَّتِي تَحْمِيهَا، وَمِنْ أَشْهُرِ المَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا مَعْرَكَةُ «سَرِيْس - جَبْع» الَّتِي امْتَدَّتْ سِتَّ سَاعَاتٍ، اشْتَرَكَتْ فِيهَا الطَّائِرَاتُ البَرِيطَانِيَّةُ، وَقَدْ مُنِّيَتِ القَوَاتُ البَرِيطَانِيَّةُ بِخَسَائِرٍ فَادِحَةٍ، وَمَسَاءً (1938/9/17) تَنَاوَلَ القَائِدُ مُحَمَّدُ الصَّالِحِ (أَبُو خَالِدٍ) صَحْبَةَ القَادَةِ حَسَنِ سَلَامَةَ، عَارَفَ عِبْدَ الرَّازِقِ، مُحَمَّدَ عَمْرَ النُّوبَانِي، العِشَاءَ فِي قَرْيَةِ دِيرِ السُّودَانِ تَحْتَ حِرَاسَةِ فِصِيلِ القَرْيَةِ الَّتِي أَمَّنَ خُرُوجَ القَادَةِ بَعْدَ وَشَايَةِ لِلإِنجِلِيزِ الَّتِي قَامُوا بِتَطْوِيقِ القَرْيَةِ.

وَقَامَ فِصِيلُ دِيرِ السُّودَانِ بِتَهْرِيْبِ القَادَةِ عِبْرَ وَادِي بَنِي زَيْدٍ إِلَى قَرْيَةِ دِيرِ غَسَانَةَ لَيْلًا، حَيْثُ اجْتَمَعَ قَادَةُ الثَّوْرَةِ لِإِنهَاءِ الخِلَافَاتِ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ صَاحِبَ الدَّعْوَةِ (أَبُو خَالِدٍ) وَذَلِكَ حَسَبَ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ «فِلَسطينَ فِي صُورَةٍ: قَرْيَةُ الدِيرِ السُّودَانِ - دَرَاةُ حَالَةٍ» لِلبَّاحِثِ عَمِيدِ بَدْرٍ، وَالَّذِي سَيُصَدِّرُ قَرِيبًا.

اسْتَشْهَدَ (أَبُو خَالِدٍ) بِتَارِيخِ (1938/9/18). وَتَوَلَّى القِيَادَةَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِهِ قَرِيبَهُ الشُّيْخَ عِبْدَ الفَتَّاحِ مُحَمَّدَ الحَاجِ مِصطَفَى (أَبُو عِبْدِ اللّهِ) الَّتِي اسْتَشْهَدَ يَوْمَ (1939/11/26)، فِي مَعْرَكَةِ «بَيْتِ فُورِيك».

وَتَصَفَّ الوَثَائِقُ الصَّهْيُونِيَّةُ الشَّهِيدَ (أَبُو خَالِدٍ) بِاعْتِبَارِهِ «إِرْهَابِيًّا خَطِيرًا جَدًّا»، وَنَسَبَتْ إِلَيْهِ تَنْظِيمَ عَمَلِيَّةِ اغْتِيَالِ «أَنْدَرُوس» فِي النَّاصِرَةِ، وَتَصَفَّه الوَثَائِقُ ذَاتَهَا بِالإِسْتِقَامَةِ وَالعِفَّةِ وَإِخْلَاصِهِ لِلثَّوْرَةِ، رَثَاهُ الشَّاعِرُ عِبْدُ الكَرِيمِ الكَرْمِي «أَبُو سَلْمَى» بِمَطْوَلَةٍ مِنْهَا:

وَقَفْتُ أَنَا حِي سَيْلَةَ الظَّهْرِ بَاكِيَا
وَأَذَلَّتْ دَمْعِي بَعْدَ مَا كَانَ عَاصِيَا
أَبَا خَالِدٍ هَلَّا أَجِبْتَ المَنَاذِيَا
أَنَادِي فَتَى فَتِيَانَهَا حَامِي الحَمِيَا

وسامٌ علي صدر
الميليشيا

بطاقات للعيد

(إلى أُمِّي تحتَ وطأةِ الاحتفالِ الصهيوني)

(1)

تمهّلي

تمهّلي قوافلَ المساءِ واحملي

لطفلنا الجوّابِ ضمّتي شعيرُ

فطفلنا يجوعُ في منفاهِ

يعيشُ زادهُ من لحمه

يجترهُ على مدىٍ يطولُ . . كم يطولُ؟

ليس يدركُ

يا ضيعةَ الأطفالِ في الشوارعِ الضوئيةِ العيونِ

والأرزقةِ المبقورةِ البطونِ

والملاعبِ التي تعجُّ بالبنادقِ الحشَبُ

وبالشرائطِ الملوّنةِ

وبالهتافِ يركبُ الهتافِ كذباً تشدُّ كذباً

«المجدُّ للأطفالِ»

يا ويلَ طفلنا في زحمةِ الجموعِ

جائعٌ كما الجموعُ كلُّها تجوعُ

مُعَلَّقُ العينينِ والكفينِ

مُعَرَّ الْجَبِينِ
يَمِضْغُهُ الصَّقِيعُ عَارِيًّا مَحْطَمَ السَّاقِينِ
مُقْعَدًا
يَسْحَقُهُ الْجِدَارُ إِذْ يَصْدُهُ جِدَارُ
وَيَغْزَلُ الْهَوَاءَ
وَالْهَوَاءُ لَا يَصِيرُ ثَوْبًا يَسْتُرُ الْعَرِيَانَ
أَوْ يُطَهِّرُ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ وَسْمَ الْعَارِ
يَا صِيحَّةَ الصَّغِيرِ فِي يَقِينِهِ الْكَبِيرِ
الْجَوْعُ إِنْ يَطْلُ
فَلَنْ يَطُولَ مَرَّتَيْنِ .

(2)

أَرْنَسْتُو تَشِي جِيفَارَا
يَا شَهْقَةَ بَرْقٍ فِي اللَّيْلِ الرَّيْفِيِّ الظَّامِيِّ لِلْأَمْطَارِ
يَا بِيرِقَ جَيْلِ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ
وَالْعَشْرِينَ
يَا رُوحَ الشَّمْسِ وَرِيحَ الزَّيْتُونِ
بَارُضِي
فِي «جَبَلِ النَّارِ»
يَا يَقْظَةَ بَحْرِ الدَّمِّ
وَنَجْمَ الصَّبْحِ

قتلتك يدُ الوحشِ الفاشي
لكنَّكَ حيٌّ

في قلبِ المدِّ الفيتناميِّ الهاجمِ عبرَ زمانِ الرعبِ
زمانِ النصرِ
كما بشرتَ . . كما أوصيتُ

جيفارا

غاباتُ الأيدي اشتعلتُ يوماً
ما انطفأتُ صيحاتُ الحربِ
والدربُ طویلٌ
قد كانَ وظلَّ عسيراً منذُ البدءِ

مفروشاً بالموتِ ومزروعاً شُجعاناً مثلكَ يا جيفارا
غابوا لكنَّ من غيرِ كلامٍ

ملأوا حزمَ السنواتِ بحبِّ المضطَّهدينِ

زحفوا - سلخوا الركبَ العريانةَ - نحوَ الشمسِ
وشدَّتْهم للموتِ حبالٌ
أو طَلَّقاتُ . .

قالوا كلماتك أنتَ بصمتِ وِرصاصاتٍ

لكن يا ويلي ما وصلوا

بل شقُّوا الدربَ لجيفارا

إنسانِ العصرِ الفيتنامي .

(3)

- صديقتي

أريد أن أقولَ كلمتينُ

الوقتُ حانَ فلا ودِّعْكَ

وقبضتي التي شددتها

عبأتها

تودُّ لو تُصافحكُ

لكنُّ مقلتيك فاضتا السؤالُ

- أيا صديقتي المضرِّجَ العيونُ

الوقتُ كيفَ

كيفَ حانَ؟

ونحنُ لم نزلْ في أوَّلِ الزمانِ

- صديقتي مضى من الأيامِ كلُّ زيفها

واخجَلتني

من عاري الذي يجرُّه النهارُ في عينيَّ

في رؤاي

مفازةً من الزجاجِ والجراحِ

ثرثرتُ يا صديقتي

صرختُ ثمَّ نمتُ

والنومُ موتُ

قد كان لي بيتٌ من الكرتونِ فاحترقتُ
واستيقظتُ
نذرت أن أظلَّ صاحباً
أن أجهلَ الوقوفَ
أن أعذَّ السيرَ فانفضي يديك عن كتفيَّ
إنني بدأتُ
أودُّ يا صديقتي
أودُّ أن أقبلك
لكنني مضيتُ .

(4)

تمزَّقَ المنديلُ لوحي بطفليَّ لوحي
يا طفليَّ
يا رفيقتي
يا بعضَ شوقي الكبيرِ
لا بدَّ أن تطولَ رحلتي
وقد أغيبُ
وربما أعودُ حاملاً في قبضتيَّ الريحُ
أو ربما أعودُ حاملاً نضارُ
لكنني في المرَّتين سوفُ أحضنُ السلاحُ

وبيرقي الشمسيَّ
بيرقَ الجموعِ . .

(5)

يا قبرَ أبي
يا نصباً ما غمرته شجيرةُ نارُ
«دير غسانة»⁽¹⁾ ما كانت لعبةَ شطرنجٍ في قصرينُ
كانت يا «يابا» مطراً أحمرُ
كنت وربعك ما أعطت أرضُ الفقراءُ
فتياناً هتكوا الليلَ الوحشيَّ الأسودُ
فرساناً ما سألوا
أين الدربُ؟
وكيف يكونُ؟
كنتم تدرُونَ
روضتم كلَّ جبالِ بلادي
وسقيتم بالدمِّ أرضَ السهلِ
ما هزَّتكم رعشةُ بردٍ في وجهِ الغازي
قالت أمِّي
قالت كلُّ نساءِ الريفِ
من ظلُّوا أحياءَ

«من خَلَّفَ ما مات» .
عيناكَ كعيني صقر هدَّدتَ الرِّيحُ الغَربِيَّةُ عَشَّه
أرَهنتَ حَليَّ عَروسِكَ
وابتعتَ عَروساً فَوَلاذِيَّةً
ومضيتَ . . ولم تتركْ كسرةَ خبزِ
ما خَلَّفْتَ لطفليكَ ولِلأمِّ سَوى المَلحَاتِ
ما رَحَتَ سَدىً
ولسوفُ تُضمُّ القَبْرَ مَسافاتٌ من نارِ
آه يا بابا
«من خَلَّفَ ما مات» .

(6)

وكنْتُ وَعَدتُ يا أُمَّاهُ بالعودَةِ
ووعدِي لم يزلُ ما ماتُ
وعدي أنْ أعودَ مَعَمَّداً بالنارِ
سألَقي رَفتي يا أمُّ لا تَهني
أطلِّ رَفاقي الشَّجَعانُ واجتازوا مَنافِيهم .

(كانون أول - 1967)

كلماتٌ من البعدِ الرابعِ

(إلى ن. ع)

سألتُ عنكَ قبلَ أنْ أهُمَّ بالسَّفَرِ

فَتَشَّتْ عَنْكَ الصَّخْرَ

وَالْبَحَارَ وَالصَّحْرَاءَ

وَالزَّمْنَ

حَدَّقْتُ فِي مَجَاهِلِ الْوَجْهِ عِبْرَ مَوْسِمِ الظَّمِّ

وَحَضَّتْ لُجَّةُ التَّرَابِ

وَالنِّيرَانَ

وَالْمَطْرُ

هَتَفْتُ بِاسْمِكَ النَّدِيِّ لَيْلِي الْمَغْلَقِ الْأَبْوَابِ

مَا لَبَّيْتُ

أَيْنَ كُنْتُ؟

الموتُ والميلادُ أنتَ لي

وما عرفتُ أنني مُعَلَّقُ المَصِيرِ

بَيْنَ . . . بَيْنَ

أصغيتُ عَلَيَّ أُمَيْرِ الصَّوْتِ - الخَطِي -

تَجِيءُ عِبْرَ شَاسِعِ المَكَانِ وَالزَّمَانِ

ما استطعتُ

وددتُ لو ينيخُ الصمتُ
فوقَ صاحبِ الدوارِ
لو يخنقُ الأصواتَ كلَّها
لو حملتهُ الريحُ وقعَ خطوتك
يا طولَ ما وددتُ .

*

وبرههً فبرههً واصلتُ رحلتي
وما لمحتُ عابراً
يا قسوةَ المسيرِ دوئماً رفيقُ
فالدربُ مُحشٍ
ومغرقٌ في البعدِ
خلفَ كلِّ عطفةٍ كمينُ
وبينَ كلِّ خطوةٍ وخطوةٍ « جليب »
لكنني عشقتُ رحلتي
صمدتُ ما انعطفتُ
أو وقفتُ
ظهري إلى الصوانِ
ليس في يديَّ غيرُ ما وهبتُ من مخالِبِ تقاتلِ الخطرِ
حلمتُ بالفولاذِ
والرفاقِ

حلمتُ أنَّا وأنتَ أبحرُ من العيونِ
تبدعُ النهارَ
يا نهارُ

*

حيَّيتُ زائري
رجوتُهُ العبورُ
عانتُهُ
افترشتُ ظلَّهُ
رجوتُ أنْ يظلَّ مؤنسي
احتضنتُهُ وسرتُ

*

يا زائري
يا مخجلي
فليسَ في الإبريقِ قطرةٌ من زيتِ
وليسَ في مزودتي طحينُ
ماذا أعدُّ للعشاءِ غيرَ حَفنةِ الحصى
ماذا لدى الفقيرِ
غيرُ جلدهِ
وعظمهِ

وحزمة من الأنفاس مطلقاً
«وذكرتُ أهلي بالعراءِ
وحاجةِ الشعثِ التوالبِ
المصرمينِ على التلادِ اللامحينِ إلى الأقاربِ»

*

ماذا لدى المسافرِ الغريبِ
غيرُ رحلةٍ مفغورةِ الشدقينِ
سبعٌ من الوديانِ طولها
كما روى الذين ما اجتازوا
وأعلنوا الرجوعُ

... ..

... ..

قالوا

- مشقةٌ هو العبورُ
فأولُ الوديانِ مريضُ التنينِ
يليه حُجرٌ حيةٌ وعمرُها ألفانُ
وثالثٌ محطُّ كلِّ الليلِ
ورابعٌ يعجُّ بالغيلانِ
وخامسُ الوديانِ طافحٌ بالدمِ

وسادسُ الوديانِ يا مكفّنُ الرؤى

مفاوزَ الإعصارِ

والرمالِ

وبعدهُ الذي تخافهُ الفرسانُ من زمانِ

ففي ذرى أطرافه جبالٌ ومغناطيس

تجرّدُ الذي نجا من سيفه

ورمحه

--

ودرعه

--

وخوذتهُ

لكي يجابهَ الأرصاءَ عارياً

ومثخناً في بدءِ نشوته

*

قالوا

تخوفوا

وأفزعوا

وما تجاوزوا سروجَ خيلهم

وأعلنوا الرجوعَ

وعاودوا الهتافَ للبيارقِ البيضاءِ

*

خَلَفْتَكُمْ وَمَا أَسْرَجْتُ ضَامِرًا
وَلَا هَزَزْتُ فِي يَدِي السَّيْفَ
أَوْ غَطَسْتُ فِي الزَّرْدِ
« لَا تَقْبِرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ
عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ »

*

وَكُنْتُ قَدْ أَوْغَلْتُ فِي الْمَسِيرِ عِنْدَمَا لَفَيْتُ
يَا مَرْحَبًا يَا صَاحِبِي
وَمَرْحَبًا بِجِيلِنَا الْمَطْلُ خَلْفَ غَيْمَةِ الْغُبَارِ

*

العهدُ أن نقاتلَ التَّينَ
والغيلانَ والأفعى
وأن نغيبَ الظلامَ
أن نمدَّ واديَ الدمِ قنطرةً
وأن نروِّضَ الأعصارَ
أن نبستنَ الرمالَ
أن نُسخرَ الفولاذَ في ذرى الجبالِ
أن نقمقمَ الأرصادَ

أن نشقَّ الدربَ للأجيالِ
فلتمرَّ . . . فلتمرَّ.

(كانون أول - 1967)

حكاية ريفية

[في معصرة الزيتون الريفية القديمة
والتي يسميها الفلاحون في بلادنا «البد» أو «الباطوس»
كانت ثمة مهرة معصوبة العينين
مشدودة إلى حَجَر الرَّحَى
تُجره لتعصر الزيت من الحبِّ
وكان ثمة فانوسٌ معلقٌ على صدر الليل في قلب الإعصارِ
ربما كانت الجرارُ تطفحُ في المواسمِ الحيرة
غير أنَّ الفانوسَ كان دائماً راعشاً الذبالة على بقيةِ
ويتتهي الموسمُ
ولا تكفُّ المهرةُ المعصوبةُ العينين عن الدورانِ
إذ يطحنُ الحجرُ، الحجرَ.]

*

ملأت فارغَ الجرارِ
والخوابي الجذبُ
صغت قبةً ومثذنةً
رفعت حائطاً
وحائطاً

«عَلِيَّةٌ» . . في الدارِ
أضأتُ في مشاعِلِ الأعراسِ
والمجامرِ التي يأكلها الرمادُ،
يا حبيبتِي
وأنتِ والفاNosُ جوعٌ لاهتُ النَّفسُ
تأكلتُ حجارةَ الرَّحَى
يا مهرتِي المعصوبةَ العينينِ
هل تعبتِ . . ؟
إنَّني شقيتُ
فالظلامُ مرهقٌ عصبٍ

*

جموعنا وأنتِ «عونة» غدٌ

*

يا حبُّ لو حملتُ عنكَ قسوةَ الحَجَرِ
وكم أريدُ لو أمزقُ العصابةَ السوداءَ
لو كسرتُ الطوقَ
واللجامَ
لو غسلتُ جبهتِي بعرفكِ الغنيِّ بالدماءِ والعرقِ

لو أنني مسحتُ عن جبينك الغبارَ والتعبُ
لو مرةً كحلتُ مقلتيك
مرةً
بقبلتينُ
لو . . .

*

لو كان موعدي وأنتَ فوقَ وجهِ الشمسِ
لو أنظني في الوهجِ المغيبِ الفرحِ

*

لو في غدٍ رويتُ من دمي أصولَ غرتكُ
وعدتُ للمضاربِ الحزينةُ
ألقيتُ نعيي في مقلِ الأيتامِ والأراملِ
وقلتُ

- فارسي انتصرُ

أعاد للترابِ خصبهُ

فأورقَ الترابُ مارجاً

من الزنودِ

والمطرُ.

خَلَّيْتَهُ عَلامَةً عَلَى الطَّرِيقِ
فأشهدوا

*

لكنَّما ذراعُ البدِّ يا حبيبتِي
يذلُّ جبهتَكَ
والزيتُ في الفانوسِ شحَّ
والزمانُ هجمةَ الرياحِ والثمرُ
يا حلوةَ العينينِ
رغمَ أنَّ الصَّبْرَ مرَّةٌ
والعشاءُ دائِمُ الغيابِ
والأحجارُ ليستُ الزيتونُ
فالقطفُ أمرٌ.

(كانون الثاني - 1968)

الرجال والبحر

(إلى رفاقنا شعراء الأرض المحتلة)

الميلاد

ونولدُ من سهوبِ الجوعِ
ومن عرقِ الفؤوسِ
ومن سحبِ الدَّمِ
من صهبِ المناجلِ ، والرصاصِ ، وغابةِ «السَّنجاتِ»
بالألمِ المعتقِ يولدُ الفقراءُ
في الزمنِ الذي يمتدُّ بينَ الظلِّ والنورِ
مع الصوتِ الممزقِ صدرَ أمِ الخيرِ
- «يا وَرَدي»
أكادُ أموتُ يا خالاتُ
دخلكُ
فليعشْ ولدي
أكادُ أموتُ يا وجعي . .
- مخاضُ طالُ
تُقَطِّعُ ظهرَها الطلقاتُ
- لكنَّ الخلاصَ يعزُّ

يا ولدي

- تعال وعودُض الموسم

شقاءُ العمر ضاعَ بهجمةِ الحمرةِ

حصدنا القشَّ والأشواكَ عاماً بعدَ أعوامٍ

وبعنا البيدرَ الخاوي

لكيما ننصبَ «القدره»

- رجونا أن نُطلَّ وأن تُغلَّ الأرضُ

أن يخضرَّ في الشفتينِ موالٌ

- وأن نلقاكَ في بردِ الليالي دافئَ اللمسةِ

- حنوناً طيباً

غيثاً تروِّي الأرضَ

إن هجرَ الشتاءُ الأرضَ

- يا «وردي»

- وتطعمُ جوعها زنديكَ أو صدركَ

للکلمات

أيا مُدناً من الورقِ العتيقِ

ولعنةِ الحبرِ القديمةِ

يا قناعَ القصرِ

والمأخوِرِ

والمقهى

ويا سوراً يُذِلُّ الرِّيفَ والحاراتِ
يا طوفَ المِياهِ الزرقِ تغمراً أعينَ الأطفالِ
فتعزلُ في الزوايا السودِ
تمضغُ حلمها بالنورِ
- ليتَ يحلُّ
ليتَ تهاجرُ الجدرانُ والحُفَرُ
وليتَ يُقصرُ المشوارُ بينَ الركنِ والجامعِ
وليتَ وليتَ
طوفانٌ من الأصواتِ

سن الرشد

كبرنا يا أحبَّ رفاقنا الشعراءِ
ففتحنا العيونَ العميَّ
أبصرنا تلالَ الخبزِ والبارودِ دونَ أصابعِ الجيِّاعِ
تحتَ أظافرِ القتلَّةِ
عرفنا غربَةَ المنفى
وعانينا . . . صدامَ العينِ بالمخرزِ
وغمَّسنا بماءِ النارِ لقمتمنا فعفناها
وعشنا وقفَةَ الحرمانِ في الساحاتِ والأبوابِ

ردّونا

- أيا نسل البغيِّ

ويا لصوص الخبزِ

يا كومَ الدماملِ

يا

المعرفة

عرفناكم

زرعنا حزنكم في جبهة الأشياءِ

رويناه بالغضبِ

وعانقناه بالأحداقِ ملحمةً من الأشواقِ صامدةً

برغم مطاحن اللحمِ المُلَقِّ خلف سورِ السجنِ

تحت الخيمة المذبوحة الأكتافِ والمسدودة الطاقاتِ

ومعذرةً عطاء مفارقِ الطرقِ

فما كنّا سوى أنتم

مداس السادة الحلفاء و«العقب الحديدية»

فيا أحبابنا السجناءِ

يا لحم اليتامى المرّ يوماً ما خذلناكم

ولا بعنا قصائدكم

ولا اشتقنا للقيام على غيمة
حضانكم حين مغرب للأهل والأصحاب
من أودت بهم غربة
- ترى هل يرجع الأحاب؟
هل نحيا لنقاهم؟
على زيتونة في الدار مخرصة؟

الذكريات

سنحكي يا نداء فجيعة الإنسان في أرض الملايين المصفدة
الزنود إلى الفراغ
بموس الكلمات
ما نخشى؟
لو أن حديثنا يُسمع
طفولتنا عرفناها بلا لبن
ولم نرضع
ولا من ثدي أرملة يربُّ الدمع يُفرز «مدة» من
جرحها العربي

يا أمًّا بلا زوج يداويها
فتصرخ من قحاف القلب

- يا أبنائيَ التّعساءِ
عَفَوَ الجوعِ
لُمُوا جرحيَ المفتوحِ إن كبرتْ أياديكمُ
واحموا أُمُكمُ من هجمةِ القرصانِ
والسلطانِ
والنسيانِ
شُدُّوا الكتفَ للكتفِ
جداراً صامداً الأعصابِ يا أملي
ويا سَندي

الحكاية الأولى

أطلَّ جلالَةُ السلطانِ في الشرفَةَ
وكنَّا نحنُ في القيعانِ
تحتَ ذبابةِ الخنجرِ
- غداً يأتيكمُ الترياقُ من شيطانِ واقِ الواقِ
راحَ رسولنا العيَّارُ فوقَ مُجنَّحِ الخيلِ
اشربوا أصواتكمُ يا عصابةَ الأشرارِ
- يا سيِّفُ
خُذِ الصبيانَ مزقهمُ وقيدهمُ

إلى الإسْطَبِلِ

والملهي

وهاتِ الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْ جَلالَتنا

وخلَّ عيوننا في السقفِ والجدرانِ

مُدَّ ظلالنا في قصعةِ الجوعانِ والشارعِ

وزينَ دايِرَ البستانِ بالأعوادِ والليفِ

وبعضَ جماجمِ الدهماءِ . . . للعبرةِ

- أجلُ مولاي

على السمعِ والطاعةِ .

الحكاية الثانية

. . . وفي يومٍ كهذا اليومِ نارَ غبارِ

وسدَّ منافذَ الأقطارِ غطَّها

فبانَ مخلصُ الإنسانِ من ظلمِ السلاطينِ

يقودُ الجحفلَ الجرَّارَ

يصرخُ

- يسقطُ السلطانُ

ردِّدنا

فقالَ

- ويهزمُ القرصانُ

آمنًا

- سيشفى الجرحُ

غنينًا وعانقناهُ

صلينا له جمعاً وقبلاًهُ

سبَّحنا بأفضالهُ

وماتَ خيارنا من أجلٍ أن يبقى

فعاشَ مورثُ السلطانِ باتَ يطلُّ في الشرفهُ

- أنا يا إخوتي منكمُ

وأنتم أنتمُ السلطانُ

خذوا مرسومنا الأول

فصَفَّقنا

- خذوا الثاني

خذوا ما يعجزُ الأرقامُ

أخذنا حزمةَ الأوراقِ زينا بها الأحجارَ والأشجارُ

أكلناها ولم نشبعُ

فمننا دونما خبزٍ ولا بلسمُ

في العشرين

صحونا يوم نادانا
- تعالوا نعتني بالجرح
لبينا
فعاد الجرح يتسع
وأدمانا وأغمد جذره الخنجر
وهمهم صاحب العصمة
- أسأنا الوزن بعثرهم
وخذرهم
ويا عيار أسرج سيد الخيل
وهات وضاعف الكلمات
جرح كفننا الخنجر

ختام الحكايا

- أيا خلص . . أيا خلص
«تدوي صرخة السلطان»
- هل بالباب من بلغائنا الأفاذ
من يروي الحكايا عن مزايانا

ويخبرُ كوكبَ المريخِ عن ترفِ يتيهٍ به رعايانا
وأنَّ العدلَ سرُّ الملكِ . . سرُّ دَوامنا واللهُ يُرعانا

- أدامَ اللهُ مولانا

لسوفَ يطبِّقُ الآفاقَ صيتك يا غنيَّ القلبِ والصندوقِ

يا حامي العذارى والصغارِ اليتيمِ

يا ذخرِ الـ . . .

- كفى . . لا بأسُ

لكمُ مثقالكمُ ذهباً

وتلكَ مخازنُ الأسيافِ

وأعطوا من على العتباتِ حاجتهمُ

- أعزَّ اللهُ مولانا

- اسملوا العينينِ والأنفَ اجدعوه وعلِّقوا الرأسا

على بوابةِ الميدانِ

- سحقاً للخوارجِ

جوَّعوا الأطفالَ

مدَّوهم سجاجيداً على درجاتِ قصرِ السيدِ الأعظمِ

وسوَّوا من جماجمهم كؤوسَ الراحِ

- هاتوا كلَّ بكرٍ عندَ بابِ القصرِ عروها

ويعوها

- بذلك يأمُرُ السلطانُ .

عصر البحر

لعينها

كبرنا يا أحببتنا وغنينا لعينها
تصيرُ الأرضُ بحراً والجبالُ الموجُ
تصيرُ جموعنا البحارة القدماءَ
إكراماً لعينها

ويغرقُ قاربٌ واثنان
تُغرقُ ألفُ صاريةٌ
ومليونان أو أكثرُ
وتغرقُ كلُّها الكلماتُ والقصرُ
ويغرقُ بعدُ سورُ السجنِ
والمأخورُ

والملهي

ولا يبقى سوى بحّارة العصرِ الشبابِ
وصدقُ عينها
وتنبتُ في مدى النهدينِ شمسُ الجرحِ
فاغتسلوا أحببتنا
وغنّوا البحرَ والبحّارَ
غنّوا هجمةَ الإعصارِ
وانتظروا على الميناءِ طولَ الليلِ . .

(شباط - 1968)

عرس الأرض

الغربة

. . . وربّما يا طفلي حوصرتُ بالغرِبةُ

لكنّني من غيركِ الغرِبةُ

من غيركِ انتظار أن تغتالني عيناكِ

يا حبيبتِي

أعيشُ لو تغتالِي

في صوتكِ المرتعشِ الحنونِ

شعرُ عاشقٍ من الصحراءِ لا يملُّ روعةَ الغناءِ

أو حكايةَ الرحيلِ والواحاتِ

تري تحيطني يدكِ

هل يُفرخُ العصفورُ في فمي غناءهُ القديمَ

يا يمامتي

وهل يبرعمُ الشبابُ في المدى المليء بالندى الناريِّ

والصخورِ

أغنياتُ؟

*

شربتُ غُربتكُ
عصرتها دماً على دمي
وقلتُ الشعرَ مرَّتينِ
مرَّةً لها
ومرَّةً حملتهُ إليكِ كلمةً، وقنبلةً .

*

«همُّ بعُرسٍ وأفراحٍ والبيِّه بيِّهٍ
لن عجزنِ الرجلينِ لمشي عديهِ»

*

العبور

وقيل
-ههنا انتظرُ
فمن ترابِ الغرباءِ (2) البدءُ
- أين كنتَ
مَنْ تكونُ
- مسافرٌ غريبُ
- وحيثما مضيتُ من هنا لا بدَّ أن تمرَّ

- قفْ

- كَأَنَّا مِنْ قَبْلِ أَيُّهَا الْغَرِيبُ نَعْرِفُكَ

كَأَنَّ وَجْهَكَ الْمَجْفَفَ الْعَرِيقَ مِنْ وَجْهِهَا

- كَأَنَّمَا يَبْحَثُ عَنْ طِفْلِهِ

- كَأَنَّ فِي يَدَيْهِ دِينَامِيْتُ

- أَصَابِعَهُ

أَنَا الْغَرِيبُ دُونَمَا عِشَاءُ

- لَا خَبِيرَ فِي سَالِنَا سِوَى رَغِيفٍ

- وَطِفْلَتِي؟

- هُنَاكَ حَيْثُ كُنْتُ

بِاتْتِظَارِ أَنْ تَمْرُكِي نَعُودَ بَكَ

مَعَكَ

- لَا بَدَأَ أَنْ نَسِيرَ فَالزَّمَانُ لَيْلٌ

وَالْجَلِيلُ عِنْدَ مَطْلَعِ النَّهَارِ

- طِفْلَتِكَ

- يَزُوجُونَهَا لِلْأَعْوَرِ الدَّجَالِ طِفْلَتِكَ

حَنَّاؤُهَا دَمَكُ

- مَاذَا تَقُولُ؟

- الشَّعْرُ

- كَيْفُ؟

- «همُّ بعرس وأفراح والبيَّة بيَّة
لن عَجَزَنَ الرجلينَ لمشي عديهِ»

الموت (3)

- خُذَ الرغيفَ أَنْتَ جَائِعٌ قَدِيمٌ
- فقدت أَمْعَائِي
- أَكَلْتُ قَبْلَ جِيلٍ
- إِذَا أَكَلْتُمْ كَأَنِّي أَكَلْتُ
- أَشْمُهُ كَفَى
- فَخَذَهُ أَنْتَ
- أَنْتَ
- أَنْتَ زَانِعُ الْعَيْنِينَ
- نَسِيتُ كَيْفَ الْجُوعِ
- وَأَنْتَ يَا غَرِيبَ
- أَحَبُّ طِفْلَتِي خَذُوهُ لَنْ أَذُوقَ لَقْمَةً بَدُونِهَا
- وَمَا عَرَفْتُ غَيْرَ جُوعٍ مَا اشْتَهَى الرغيفُ
- حَرَمْتُ طَعْمَ الخَبِزِ
- صَائِمٌ
- وَأَنْتَ مَا أَكَلْتَ

- بل فعلتُ
- يا أحبتي والله ما كذبتُ
- كذا أنا
- أجوعُ غيرَ أنِّي أقسمتُ أنْ أجوع
- وعدتُ ذلكَ الغريبَ
- كيفَ والمجاعةُ الوجودُ والإنسانُ
- وطفلةُ الغريبِ عرسُ الجوعِ
- كأنَّه حجرٌ
- لأنَّه دمٌ ولحمٌ ميتةٌ وطينٌ
- لأنني حزينٌ
- لأنني يا إخوتي يشبعني الخوارُ
- ربطتُ فوقَ بطني الحَجْرَ
- حملتُ همَّكمُ لم تأكلوا . . فكيفَ
- كيفَ آكلُ
- والعرسُ ماتمُ الغريبِ
- ماتمُ الجموعِ
- والرياحِ
- والتينَ والزيتونَ
- والطورِ
- والليمونِ

- والقرى المسحوقة العيون

- والعيون . . . والعيو . . .

... ..

... ..

...

*

مغارةُ الجوع أنا

صحتُ في الظلامِ الأنبياءَ الأربعينُ

أكلتهمُ

أكلتُ بعدهمُ رغيفهمُ

لأنَّ حزنهمُ عقيمُ

ناموا على أئنيهم . . تصوَّفوا

وأصبحوا ملائكةً .

*

العودة⁽⁴⁾

لم نأكلُ تفاحةَ آدمُ

لكنْ أقسمنا

أن نُحيي الأرضَ

عناقاً

حباً

ونصيرُ لها أوفى بشرٍ

نأكلُ خبزَ القمحِ المعجونِ بشوقِ الأرضِ لمن هجروها

زمناً لم تزهراً فيه

ولم تمنحْ سنبلَةً يقطفها الجاثي في الجنةِ

والجاهلُ أنَّ الجنةَ ما كانتُ إلا في الأرضِ

الأرضِ

حبيبتنا

نحتملُ اللعنةَ نقبلُ بالحرمانِ من النهرينِ

ونهبطُ . . نبدأ من حرمونُ

يسعدنا أنَّ الأرضَ تلقنتنا صدراً في الصدرِ

أحببتنا

ما قالت لا

في وجه أغانِي الحبِّ

- سقطتُ أجنحةُ الغربةِ والتهويمِ

وعاشتُ أمجادُ الأقدامِ

وعاشَ الدربُ

وعاشَ الشوقُ

لعينيكِ الناصرةُ القدسُ

للشعر

وللشفقِ البحريِّ وللسيلة⁽⁵⁾

جبهتكِ الصلدةُ والمفروشةُ ألقاً من جبلِ النارِ

ومن أسنانِ مقاتلٍ

أخطأنا

أنتِ الجنةُ في عينيكِ «حواكير الشمس»⁽⁶⁾ ومطلعُها

وحصادُ الشمسِ . .

العرس

عمري عشرونَ

وتجربتي

غنتكِ قروناً دمويةً

لكِنَّكِ أَنْتِ تَخَطَّيْتِ الْعِشْرِينَ

وما زالتُ فيكِ الطفلةُ ترقبُ في الباديةِ الفارسُ

هتفتُ في قلبكِ عرافتكِ العجربةُ

- الريحُ تسوقُ الفارسَ تدفعهُ

نحوَ العينينِ الضارعتينِ

الطافحتينِ محبةً

- ياه . . .

- في بعد جبينِ الفارسِ خالٌ يَدْفُقُ دُمٌ
- سيفُ اليزني . . حبيبي
من قلتُ وقلتُ يجيء
- رملي ما قالَ ولا غنّى
إلّا للحبِّ البدويِّ الأسمريِّ يا سمراءُ
- حوّل . . حوّل
حوّلتُ فمات الموتُ . .

(شباط - 1968)

أعياد الدّم

(إلى الفدائي في معركة الكرامة)

أدميتُ قُلُوبِي الَّذِي يَخْضُ الدَّمُ فِي قَرَارَةِ النُّهْرِ
عَصْرَتْ مِنْ ضُلُوعِي الَّتِي تَبَيَّسَتْ عَلَيْكَ
ضَحْكَةً طَوِيلَةً مَفْرَغَةً

قَذَفْتُهَا فِي عَيْنِ قَاتِلٍ
يَسْجُنُ بَيْنَ تَوْقِنَا وَوَجْتِيكَ سَطْوَتَهُ
يَحْرِقُ فِي قِصَائِدِي طَرَاوَةَ الصُّورِ
أَنْثَرَهَا شَرّاً

أَلْمَهَا

أَشْتَلَهَا عَلَى سَمَائِنَا
أَغْيَبَ النُّجُومَ بِالنُّجُومِ يَا مَذْبُوحَةَ الرِّجَاءِ
وَالْمَنْسُوفَةَ الْجَسُورِ
يَا كِرَامَتِي الدَّامِيَةَ الْأَغْوَارِ

*

لَوَيْتُ وَجْهَكَ الْمَكْدُودَ عَنْ عَيُونِي الَّتِي تَرَى
وَلَا تَرَى حَدِيدَ الْمَقْصَلَةِ
أَحْجَلْتَنِي

واخجلتاه من حجارة الطريق
من زهرة الدفلى
ومن ضراعة الغريق

*

أضلُّ في الشوارع العمياء
- مَنْ يبيعني يديَّ لحظةً
ويشتري عمري
طوّفتُ في المقابرِ السوداءِ والبيضاءِ
درتُ
- يا يديَّ
ولا يرجعُ الزمانُ لي صدى يديَّ
يا آكلي أصابعي
ومرفقيَّ.

*

هتفتُ ما وعيتُ غيرُ بحةِ العذابِ
الرأسُ عندَ الرأسِ موعدُ موترٍ
والموتُ خلفَ البابِ
يا حلوتي

لما هجعتُ في جراحنا
- ضُيِّعتُ واغتصبتُ ، جعتُ
هُدِّمتُ قُبَّةً وِبرجُ
جُرِّعتُ علقماً على موائدِ القمارِ في أندية الصُّغارِ
أفقتُ في منابرِ الوعَّاظِ دون وجهِ
عشرونَ يا حبيبي المقطعُ اليدينِ
حملتَ رايتي ، فديتني
فخذ يديَّ يا عطاءَ مقلتي
- يا نعم ما أعطيتني
فتحتَ في حقولِ الملحِ في عيوننا النوارِ
فجرتَ في جبالِ الثلجِ مدَّ نارِ
... وأرتمي عليكُ
أفديكُ يا غاليتي بالصدرِ
بكتفي الذي ما انهدَّ بعدُ
برأسي الذي ما بعتهُ
ولا انحنى برغمِ هجمة المشيبِ

*

لكنَّما حبيبتني
بكيتهُ أمس عندَ قرنةِ المساءِ

قلتُ قولَ من يوَدِّعُ الشبابُ
«والبارحة يا عقابُ
حين القمر غابُ
شفت الثريا ميِّحت للمغيَّبِ»
أنكرتُ مولدي
لعتُهُ
لعتُ الثدي واليتيمُ
وبابي الذي خلعتَه عليَّ
لعت عري الشوق لسعُهُ
حضتني صليَّتُ
أوقدتُ شمعتينُ
عبدتُ يا إلهتي الترابَ
أنتِ
والعذاب والزمنُ
علوتُ محنتي
روّضتها
فأقلعتُ تحملني
أحملها
تيممةً على الجبين
والجبلُ

يا ليل طول السَّهَرُ
يا عين يا خطرُ
يا عاصرَ المقاتلينَ أعطني يديك
وخذُ لها قلبي
وحمل السلاحُ
لقبها يا ليلُ
لعمرها
يا عينُ، يا قَمَرُ

*

عطشانُ يا صبيةً محجولةَ الساقينِ
عطشانُ هذا الكورُ
يحبُّ جرتكُ
صبي له شربةُ
وكسري الخلخالَ والسوارُ
وازحمي الساحات بالجرارُ
لسوفَ التقيكِ حرَّةً طليقةً على التلالِ يا جَبَّعُ⁽⁷⁾

*

- يا سائلي
- ماذا يخبئ الوشم؟
- قبله ودم
- ماذا على قميصك العتيق؟
- دم
- ماذا يزنر العنق؟
دم وياسمين
- ماذا غرست في الصوان؟
وقفتي وعيد دم
- ماذا لديك غير الدم
- بحر دم . .

(نيسان - 1968)

أصداء الشجرة المقطوعة

على بابنا كانت حورة، صبية وحلوة، فيها نتعرف تعاقب الفصول، وذات
يوم صحونا فلم نجدها، وقيل آنذاك مرَّ حطاب، وقطعها ليصنع منها .

- ماذا؟

- أي شيء . . .

وربما صليياً .

*

أهوى علينا الليلُ قطعنا

رأساً مهشمةً

عظماً على دربٍ مضيعةٍ

سقطت بنا صرنا

قدماً مصدعةً

لا عرس، لا ماتم . . .

تعشى العيون الشمسُ أختاهُ

والكأسُ فارغةُ

والملحُ فوارُ

«يا شجرةً في الحي حاميتها أسد»

تروي بنات الدمعِ حاميتها

في ليلة همجية السمار خلاها
يا قسوة الحطاب
والفأسُ مثلومةً .

والريحُ تثقلُ أذرعَ الأرضِ
يا ويلها

لما «شتتها» خفقةُ الغياب

- قلبي على ولدي

يا قلبه القاسي على الحجرِ
ما صدَّ عني غيلة الفولاذِ
أو غنى ليؤنسني

طفلٌ جفاهُ الصوتُ ودَّعني

ما قال حتى «الدار

دار أبونا

وأجو الغُرب يطحونا»

وأخوه في حضني

على شفتي

مرثيةُ الشهداء يا صمتي

وحدي متيمّةٌ

وأرملةٌ

تكلّي ، وطفلي مرميٌّ على الصحراء

ظنَّ سرايها ماءً

وعزَّ الماءُ

- أمَّاه

- على كبدي

- ذُبِحت براها الصخرُ أقدامي

سئمتُ مساري الخبز والتجوالُ

وتضوَّرتُ في السِّلِ أشرعتي

جوعاً لميناءٍ

وأعصابي

هُدِمتُ على طللٍ وأبوابٍ

صوتُ في الوديانِ

ونفختُ في قَرَبٍ مقطعةٍ

يا خبيتي

ما رَدَّ أحبابي

يا وليتي

ما رَدَّ أصحابي

فغصصتُ من ألمي ومن غضبي

«الدارُ قفرةٌ والمزارُ بعيدٌ»

يا أمُّ تلك يدي

مغموسةٌ أرقاً، مسحوبةٌ العقْدِ

لُمِّي عَلَيْهَا الطينَ والأشواكَ
ضُمِّيْهَا

حنانِكَ اقبلِهَا

باركِي بالنارِ مثواها

- من عمري العشرين يا مولودي الثاني

من لبَّ أحزاني ، ومن جرحي

من تحتِ فأسِ القاتلِ النشوانِ ،

من عاري

حوشتُ أكواماً من الشقيق للسامي

ورثتُ ثوبَ العرسِ

يا غالي

وبأعينِ النخاسِ

شلختها أسوارَ أسواري

وصلبته في القاعِ

من سوّى من الأحطابِ صلباني

أغفو أقومُ

وأنتِ في عَصَبِي

وقعُ وزغردةٌ

يا قاصداً داري

جوّعي يديك وصدرك الضاري

يا أنتَ

أنتَ حبيبي الربَّانُ، والصارِي

فدلَّلتني على زنديكَ

حممني

فمنذُ رحلتَ عن عينيَّ ما اغتسلتُ

وجفَّ النَّبعُ، والبحرُ

ونوَّحتِ العصافيرُ

«يا طيورِ طائره

يا وحوشِ سايرة

دورنِ على حبابي

قلنِ جبينه راعية

بلا غنم بلا نوق

تقيِّلِ بلا دالية»

- وخلفَ مسافةِ الصوتِ الحزينِ الساطعِ الكلماتِ أختاهُ

سمعتُ نداءها الشفقيَّ

من شفتيك

يمسحُ رعدةِ الموتِ

التي ظلتُ بأعمامي معشنةً

كأني في جدارِ الحدِّ رعبُ الخوفِ

طفلٌ جمَّدتُ شفتيه حلمةً جثةً

ماتتُ على جوعه
حفرتُ عليك فاجعتي
فعفو جبينك المجروح إن قرؤوا عليه الشعرَ
أو شوتهم النيرانُ
عفوَ الحزن إن غمرته أفراحي
قبيلَ رحيلي الآتي
فأنت عرفتني الجوالَ عبرَ العالمِ الكابي
أفجّر فيه صحوةَ أفقر الفقراءُ
يا فقراً على فقري
ويا كنزي المخبأ خلفَ أحداقي . .
حرثتُ مجاهلَ الأدغالِ
فتحتُ المحارَ
أزقةَ المدنِ
سطوتُ على القلاعِ
قلبتُ عشَّ النسرِ
- أين حبيبتي
يا وجهها الخابي
على الغائبِ
ويا متجهّم النبراتِ يا صوتي
ويا نبضي

أنا والرحلةُ الموهونةُ الشريانُ نشخبُ دمُ
أنا والشاطئُ المشلولُ
كنت غريقةً في الرملِ
يا «ودعة»

فما لمتك كَفُّ مقلَّبِ الشيطانِ
والجزرِ البعيداتِ
ولكن جرحتك أصابعُ الدجالِ
طارَ موسوساً في الليلِ خفاشاً
وصدَّقَ أنه الصقرُ
ونقرَ فيك وكرَّ العتمةِ البلهاءِ
صبَّ البردَ في كفيكِ
في صدركِ

فنمت عليه حاملةً

- ترى ألقاك يا بحاري المتقحمَ الأخطارُ

يا وعدي

- تشدُّ حبالَ هذا الصوتِ دفةَ قاربي المتعبُ

ويجتازُ الحنينُ بنا حدودَ الحسِّ بالمغربِ

أنا وحببتي في الشمسِ

أعنيةٌ مرجعةٌ

على شبَّابةِ الراعي

على المجوزُ
على أكوأخك الطينيةِ الأسطحُ
فغنينا
وغنينا
وضمينا إلى صدركُ.

(نيسان - 1968)

نيسان سمفونية

مسكينٌ هذا القمرُ المذبوحُ بقلبي
يا قلبي الهامدُ في السردابِ الضيقِ

هل تبكي؟

لا تبكِ عليَّ

عليَّ

عليَّ

حصدتُ الريحَ

حرثتُ البحرَ سدى

ومضيتُ أعدُّ نجومَ الليلِ

ولم أفرغْ

لما عمَّرتني أترابي

عندَ السكَّةِ

- تعدُّ جمالَ أبيكَ الجربَ

إذا أكملتُ العدَّ

وما فطنوا

أنِّي لم أحفظُ غيرَ مئة

أنِّي لا أعرفُ أن أحسبُ

مسحوبِ الوجهِ الراجعِ كالقمرِ الأصفرِ

مخسوفٌ

تأهت عيناى على الظلمة

وحدى أفعيتُ قريبا غمتنى الغيمة

أكلتنى

لم أبصر رغم ملايين النجمات

ولا حتى نجمة

ودعتُ الأصحابَ وسرتُ بغيرِ سراجٍ

والعتمة

الحقَّ أقولُ أخافتنى

فكبتُ

أسلتُ دمي

لكنَّ الصوتَ استشهدَ فى حلقي

فبكيتُ ولم أخجلُ

وحدى إلا من غمرة حزنٍ

هل صدقتم أنى أحزنُ

أنى إنسانٌ مثلكمُ أبداً يحزنُ

مذُ كانَ يمدُّ يداً جوعى

فى بابِ الفرنِ

وبابِ الجامعِ

والمقهى

والباب المغلق طول العمرِ
وفوق الجسرِ
بقرب عمودِ النورِ المطفأِ
تحت الكوآتِ المسدودةِ
في السوقِ
وتحت عيونِ امرأةٍ شوهاءِ مكحَّلةٍ بالفحمِ
وينقطُ من نايتها الدمُ
هل صدقتمُ أني في الحزنِ غريقٌ حتى العظمُ
لأنَّ الحلوةَ من أحببتُ اختطفتُ مني في العشرين
اختطفتُ مُدُّ كانتُ طفلةً
وأنا أشرفتُ على السبعينِ
بلا عكازٍ
أو قنديلٍ
وعيونِي مرهقةٌ قلقةٌ
والليلُ . . الليلُ طویلُ يا أبنائي هذا الليلُ طویلُ
والنومُ رحيلٌ أزمِنُ إنساناً حُضنه
هدمتُ أعصابَ الصمتِ
هوَى
حدثاً مقتولاً لم ينسُ
يا ليتَ يئنُّ ولو مرّةً

ليفجر سرَّ عذاباتي

ويقولُ الصدقَ

ليكشف للناسِ الحسرةَ

«السيلةُ» في صدرِ جنينَ

وغزةُ جرحٍ يلحقُ جرحُ

وأنا شامُ جراحٍ صدئتُ

واختبأتُ

في اللونِ الزائفِ ما عرفتُ

أنيَّ جدفتُ على نفسي لما أعلنتُ الحبُّ

وجهلتهُ المعنى الكامنَ خلفَ الحبِّ

وكيفَ أحبُّ

حبيبتِي المسبيةُ أمسِ

وقبلُ

وبعدُ

ودختَ معَ الداعينَ

- مددُ

- خلصها كرمي له

- لا حولَ لأضعفَ كلَّ الخلقِ

- مددُ

- أنباتُ عبيدك أنَّ الشرقَ يصيرُ الغربَ

وَأَنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ آتٍ

آمَنَّا

وخفضنا للمسرى المنسداً

فتحنا العينَ على الفنجانِ

قرأنا البيختَ

اصطدنا فيه الطيرَ الحاملَ بشرى الغدِ

وكتبنا الحرزَ على جلدِ الحرباءِ

- مددُ -

- هل صدقتم أني في الربعِ الأولِ من أيامي شختُ

ما أنبلَ هذا الحزنَ الخافي أسئلتي

وضراعاتي

ما أشقى أنُ أشتاقَ صديقاً لا يحزنُ

فأبوحَ لهُ

ألقي بالهمِّ على ظهره

ما أثقلَ دقائق الساعةِ

معلنةً أن الموتَ بطيءُ الخطوِ

وقاسي القبضةِ

ثلجيُّ

الأنفاسِ

كريهُ

يعصرُ من شفتيها الشاحبتينِ النسغُ
ومن خديها العطرَ الأسمرُ

من وجهي

يستلُّ نضارةَ يومٍ مرَّ كلمحِ البرقِ
ما أشنعَ أن نعجزَ تحتَ الكابوسِ
فلا نصرخُ

أو نصحو مرعوبينَ

ونرجو شربةَ ماءٍ

ما أظفَعُ أن لا نسمعَ صوتَ حبيبٍ

أيَّ جوابٍ

والحزنُ رحيبٌ أوسعُ من جنباتِ الكونِ

يضيِّعنا

يا ليتَ بلونا معنىَ الفرحَةِ قبلَ يجيءُ

وقبلَ الخوفِ من المجهولِ القابعِ عندَ سياجِ الدارِ

يا ساعتنا المصلوبةَ ظهرَ العصرِ

على قلبينِ

يا قلبَ حبيبتِي المشبوحِ على البابِ الموصدِ

يا قلبي المسفوحِ عليه

والساعةُ مطفأةُ الأرقامِ

وواقفةُ

في الصمتِ غرابٌ
والشمسُ جناحٌ ينزفُ
يشعلُ فينا الوهجَ الميتَ
فوقَ رصيفِ الميناءِ المهذومِ على جَبَّهاتِ البحرِ
يمرُّ قطارٌ
يحملُ عشاقَ الأسفارِ
ونحنُ صغارٌ
نرقبُ في جبهتهِ النارَ
فنبسمُ نرقصُ
نعجزُ أن نتعلَّقَ به
يا بؤسَ الخيبةِ ليلَ نهارُ
هل صدقتم أني والحزنُ
وأنتمُ
يا ويلي
نَسيتنا الفرحةُ
أخشى من موتِ الحبِّ
ولا أخشى
أن يخبوا في عيني الضوءُ
أو أطرحَ في قبورِ طِبِّ
يجلدني سجانٌ أبله

يختمني بالشمع الأحمرِ

يلعني

ييصقُ في وجهي

ويمزقُ أمي في فكّيه

يلوثني بالزيف

يسميني منبوذاً

سقطاً

- يا خائنُ

أخشى أن يفرغَ مني القلبُ

ولا أخشى

أن أفرغَ في جوفِ الديدانِ

يا حبةَ قلبي الموقوفِ النبضاتِ عليكِ

يا عرقَ العينِ

يتيمُ يسألُ أن يطعمَ

من خبزكِ محضُ لقيماتِ

من عينكِ يرجو لو يشربُ

من عشبكِ ينسجُ ثوبَ العيدِ

وفيه ينامُ

ينامُ . . ينامُ . . على شعركِ

لكنَّ العيدَ وأنتِ على شرفاتِ الغيبِ

دموعٌ تغرقُ أهْدَابِي
يا حزنَ الأَرْضِ
ما يوماً غنيتُ الأَحْزانَ قَبيلَ الصَبْحِ
ولا لعذابِكِ
أو للعقمِ
ضفرتُ صُليبَ الوَرْدِ
واليومَ يفيضُ حنيني البكرُ على وديانِكِ
لفح هَجِيرٍ
فيعانقُ روحَكَ سَيْلُ فَرَحٍ
بشَّرتكِ أَنَّ الفَجَرَ تَغَلَّقَ تحتَ العَيْنِ
وفوقَ فروعِ التِينَةِ
والزيتونِ
وحقلِ اللوزِ
بشَّرتكِ أَنَّ حنيني صارَ صبيّاً
شبَّ على شفّتيكِ
يقاتلُ فيكِ الموتُ .

(نيسان - 1968)

القاع في الغربية

على الرباب

يُحكى أنَّ الليلةَ كانتُ دونَ قمرٍ
لما أنْ عبرَ الغائبُ ذاتَ مساءٍ
علَّقَ فوقَ الشباكِ المسدودِ
الشعرَ
وقبلتهُ
قنديلَ عذابٍ يا أمِّي
يُحكى
أنِّي جرَّحتُ أصابعي العشرةَ
هدَّمتُ «المدماك» العالي
وأكلتُ حجارتَه
حجراً
حجراً
لكنَّ الموتَ القابعَ في جسدِ الثعبانِ الملويِّ على ساقِيَّ
تجمَّدَ فيَّ
وجمَّدني
فوقعتُ بوجهي المسوَّحِ على زهرِ الليمونِ الذابلِ

تحتَ حدودِ القصرِ
وغَيَّني الدهليزُ
رجوتُ وأرجو
لو كان الموتُ الخاتمُ غيرَ الموتِ
لو فتحَ الشُّباكُ اليابسَ
لو نادى من «عُبِّ» الليلةَ صوتُ
- يا هذا النملُ الزاحفُ تحتَ الجلدِ
يا آكلِ في الثوبِ الإنسانِ
تقياً لحمَ الحيِّ
حرامٌ هذا الزادُ عليكَ
دُمت .

الأرجوحة

الهاربُ في السنواتِ الخلفيةِ
ظلَّ سجيناً
يصعدُ خطوةً
يهبطُ
- هذا السلمُ كانَ
وصارَ

بلا درجات

- والهوة

- هل يسقط

- والسقطة

- هل حدثت

- يهوي . . يهوي

- والهوة أكثر قرباً من منتصف الليل
وأبعد عن رأس المنظار.

القرار

- على جزر الجمر

أبحر

وأومض

لأكبر حبّ لديك

فمن دمنا

مجدُّ جيلٍ سيُورق.

إشارة

لن أسألَ بعدَ اليومِ
لماذا أفرحُ للزلزالِ
وما الجدوى
من طولِ الصمتِ
صميمُ الكونِ اهتزَّ فهلُ يصحو من مات!

صفحة مطوية

اليومَ خميسُ الأمواتِ العشرينِ
نزورُ قبورهم الصدئةُ
فلنكتبُ فوقَ شواهدِها
كانوا ضعفاءً .

المفتاح

اليومُ الأولُ في الأسبوعِ الشرقيِّ الأحمرِ
عربيُّ ولدَ على الموعدِ
في صدرِ البرقِ مضى يصعدُ

اليومُ الثاني
اثنانَ على القمّةِ
والرعدُ مخاضُ
اليومُ الثالثُ
كانَ المولودُ نبياً
كانَ مجيءُ مطرٍ
اليومُ الرابعُ
حينَ اخضرَّ الصخرُ
اليومُ الخامسُ
زغردةٌ
اليومُ السادسُ
جاءَ حزيرانُ الآخرُ
في السابعِ عانقنا تموزَ العائدَ
أحببناه لأول مرةٍ.

(نيسان - 1968)

البكائية الواحدة والعشرون لشهر اسمه أيار

(1)

حلمتُ بالعيونِ الطفلةِ المسلوخةِ الجفونُ

مغسولةٌ بالدمعِ بالأسى

بغيمةِ حنونُ

حلمتُ أنّها

أريقَ ماؤها على الحطبِ

فلقَّه السوسُ

وقاءهُ . . مذلةٌ

يا هذه العيونُ

الليلُ . . ليلُ

والشوارعُ الهزيلةُ الظلالُ ميتةُ

والريحُ شرَّدتْ عن الشجرِ

عصفورتي

وعُشَّها

ذرتُهُ في فمي

مضغتهُ

يا جوعي القديمَ

يا مرارتي المفقوءة السمَّ على دمي
الملوَّثِ الزريفِ
تحتَ بابِ قلعتي المنحوتةِ الأبراجِ في الجبالِ
صخرةٌ
أسطورةٌ
محروقةٌ على حكايةِ الصمودِ والمقاومةِ
معلنةٌ حدادها
بوجهِ جيلنا . . وجهينِ
هزيمةً
وخطوةً إلى الوراءِ
لفظةً مساومةً

*

أوأه يا صغيرتي الباردةَ اليدينِ
أبكيتِ في منفايِ
يا شهيدةَ الأصابعِ العشرينِ
والإعلانِ عن بطولةِ الموتى
وعن . .
وعن
وعن حبيبك المضيِّعِ المسكينِ

يا حبيتي
رفعتُ من عصارةِ التشريدِ
من سلاسلِي
إليكِ
من رطوبةِ المنفى
ومن نهايةِ التعبِ
عذابِ كلمةٍ مهزومةٍ
وخائفةٍ
مجرورةٍ من شعرها
ومن ذراعها
على مزابلِ التاريخِ
نذلةٍ
من الحضيضِ
فابصقي عليَّ
هللي لجثتي المحترقةِ
وفي قرارةِ الترابِ
يا غاليتي
ادفنيها
وإن بكيتِ خبئي الدموعَ في قارورةٍ
لعلَّ في غدٍ

يجيء ظمئٌ*
مخاطرٌ إليكِ
فاخزنيها .

(2)

يا أيُّها المشيِّعونَ طأطئوا رؤوسكمُ
وودِّعوهُ
ودِّعوه
واذكروهُ عندما يفترسُ الحوتُ على تلالنا القمرُ
وليلةَ الجليدِ حولَ موقدِ الرمادِ
في ذبالةِ السَّمْرِ
ولحظةَ اشتياقكمُ لفارسِ اليمنِ
يجيءُ من طفولةِ مزهرةِ الجراحِ
فوقَ خدهِ علامةُ المخلِّصِ
الإنسانِ
ليهدمَ الأسوارَ حولَ مَنْ أحبَّها
صفاء
يأتي بسفْرِ النيلِ
فارساً
منتصراً على رهوطِ الجانِ

والكهَّانِ
والغزاةِ
وحافراً على وجوهكم عروسةً مفرودةً الجديلةِ النشوى
على حقولكم
يا أيُّها المصعَّدون من صدوركم
نشيجها إلى عطاءِ النعشِ
حرمةً
فكلُّ ما في سيرةِ المأساةِ من دموعنا
لا يبعثُ الأمواتُ
لكنَّ بعضَ الصمتِ . . يا أحبتي
يريحهم
فخففوا ديببكم على طريقِ المقبرةِ
وأسلموه صامتينَ
واطرحوا عليه حزنكم
رشوه بالحناءِ . . والعطورِ
وفي زوايا بيته المسودِّ الحيطانِ
أوقدوا الشموعَ
علّقوا الفانوسَ في البوابةِ العمياءِ
واقروا الوصيةَ الحمراءَ للجموعِ
في أواخرِ المساءِ .

(3)

أوصيتكم بالحبِّ والكرَاهيةُ

بالصدقِ

يا أحبتي

أوصيتكم بالمعرفة

وباحتقارِ الغدرِ

والنكرانِ

والجحودِ

أوصيتكم بلعنِ طعنةِ الصديقِ للصديقِ

أورثتكم دمي

فقاتلوا .

(4)

وإيه إيه يا زمان . . إيه

فالموتُ حقٌ

والحسابُ آتٌ

والقبرُ جامعُ الأعمالِ بالنياتِ .

(5)

يا عابِرَ السَّبِيلِ
هَذَا الْقَبْرُ مَوْحِشٌ

يا عابِرَ السَّبِيلِ

غَنِّ لِي

- مِنْ قَبْلُ

كَانَ لِي خَلِيلٌ

وَإِغْتَالَنِي

يَا عابِرَ السَّبِيلِ .

(6)

مَنْ دُونَ أَنْ يَقُولَ لِي الْمَسَافِرُونَ

وَدُونَ أَنْ يَكْتُبَ فَوْقَ شَاهِدِي

ضَحِيَّةٌ

عَرَفْتُ أَنَّ قَرِيَّتِي السَّمْرَاءَ . . . جَارِيَةٌ

وَأَنَّهَا تَرْقُصُ لِلْمَلِكِ

ذُبْحَةَ لَيْلِيَّةٍ

وَعَارِيَّةٍ .

(7)

يا تاجرَ الكلامِ . . صهْ

وخلنا

قتلتنا وبعتنا للدود

ما الذي تريدُ بعدُ

خلنا

يا تاجرَ الكلامِ .

(8)

اغرقْ في العيونِ الطفلةِ الفرحانةِ النعاسِ

والمغسولةِ الشيطانِ

بالماسِ

والأعراسِ

والزيتونِ .

(أيار - 1967)

وسام على صدر الميليشيا

«قال المعنى⁽⁸⁾ والأسى كاويه

والدم يا ويلى . . بحور بحور

واللّي تكوم عالجبال اليوم

البارحة يا عزوتي . . كانت عمارة الدور

تحت الردم شعبي بقلب النار

والنار ماتت يا حبايب وانظفت

والأرض ولدت عالمدى . . ميليشيا

كلّ البنادق والعيون مزغردة

ميليشيا»

*

عمّانُ يا حبيتي

قلبي عليك يا حبيتي

أخشى عليك النار

كنت بلا مجد

فصرت مجدنا

يا مجدنا . . مكللاً بالدم والدمار

ميليشيا . .

نحنُ هنا على مشارفِ الشمالِ

نحنضنُّ البنادقُ

ونرفعُ البيارقُ

حبيبتي

مع الرجالِ . . والرجالُ يسهرونُ

والليلُ والخندقُ

عيوننا من دمنا، ودمعنا تغرقُ

وفي نداءك الذبيحُ ألفُ طفلةٍ

وألفُ سيخٍ

ألفُ امرأةٍ

عشرون ألفاً . . يا حبيبتي

كيف احتويتهم؟

وكيف صبتهم؟

وكيف؟ كيف صار؟

يجتاحك التتارُ

وتصمدُ الميليشيا . .

عشرون ألفاً . .

أين؟ كيف . .؟

واختفتُ

عن الشوارعِ العمياءِ نجمةٌ هوتُ

تمزقت . . وانتشرت نابالم

وأجهشت حبيتي بيسان⁽⁹⁾

تسألني

- ماذا لديك ؟

لدي بندقية

معي من الرجال عشرة

وأحمل القضية

والنصر للميليشيا

النصر للذين يصمدون

النصر للذين يعبرون النهر و«الأسيه»

وللذين يقهرون النار والجريمة

أولئك الذين يحملون في قلوبهم

أحزان شعبنا . .

ورفضه للرعب والهزيمة

النصر للأطفال

والحمامة

على بنادق الميليشيا

«نادت تنن عند بابها سلمى

ونهداها على طبق

الحرس الأسود قادم

أيا مدينة الزرقاء»⁽¹⁰⁾

*

«قال المعنَّى والأسى كاويه
زرقاء سابتُ وانسبتُ
وذياب في بحر الدما خلاها
يا حيف يا بو زيد ما كان العشم
ترمي عباتك والأصيلة مشلوحه عجابها
وحبابها . . ميليشيا»

*

أحبابها الذين ليسَ يتعبونُ
في السلط ،
في إربد ،
في المخيمات
أحبابها الذين ليسَ يهزمونُ
... ..
نحنُ هنا وتحتَ سطوة المدافع
من خندق ،
لخندق . .

من شارعٍ لشارعٍ
من حارةٍ لحارةٍ
نكتبُ بالرصاصِ
نكتبُ يا حبيبتِي . .
أغنيةَ الخلاصِ

... ..

نذكرُ يومَ ماتَ الشاعرُ الحزينُ في غرناطة (11)

ولم يمِتْ هنا . .

لأنَّ في عمَّانَ

تنتصرُ الميليشيا

... ..

هنا إذاعة . . .

هنا إذاعتان . . .

... وإنَّهم لعائدونُ

... وإنَّهم لراحلونُ

لكنَّما الإذاعتان يا حبيبتِي . .

لا تسمعان صرخةَ الميليشيا . . .

أو قصةَ الميليشيا

لا تبصران بيرقَ الميليشيا . .

... ..

حييتي

أنا وأنتِ وحدنا في لهبِ القذائفِ
وحولنا أفئدةُ الأَصحابِ والمعارفِ

*

-«الله يعين اللي صبرُ
واللي على الظلم انتصرُ
واللي عيونُه من السهرُ
غرقتُ مطرُ
الله يعين رجالها الميليشيا»

*

أواه يا حييتي . .
يدي على يديك
وقبلتي معلّقةُ
وظلقةُ تقطعُ القصيدةُ
حكيت لي
حكيت لكُ
وأنصتَ الرجالُ
لقصةِ انتصارِ

وانبلجَ النهارُ
وَوَظَلَّ ظِلُّ الْمَشْنِقَةِ
يحكي لنا هزيمة التتارِ
يخفي عن العيونِ
يا أحبتي . .
يا جثَّ الصغارِ
أَيْتَهَا الْأَصَابِعُ الْمُقَطَّعَةُ
أَيْتَهَا الْعْيُونُ يَا مَقْلَعَةَ
أَيْتَهَا الْمَعَارِكُ الْبَاسِلَةُ الْمَجِيدَةُ
أَيْتَهَا الْأَهْرَامُ . .
يا أجدائنا المجمعَّةُ . .

... ..

إنَّا هنا على مشارفِ الشمالِ
أنا وأنتِ يا حبيبتِي
والليلِ ، والنهارِ ،
وهذه العواصمُ الكبارُ ،
لم تحركِ ساكنًا برغمِ هجمةِ التتارِ

*

قال المعنَى والأسى كاويه

يا مغرَّبين للدار ،

يا سبع الفلا

سَلِّم عليهم يا حبيبي ، وقُلْهُم

عمَّان ..

وإربد

والمضارب هللتُ

والأمم ، والطفلة الجريحة زغردتُ

لما انتصرت عالِداً الميليشيا

... ..

- الهوامش :

- (1) قرية من قضاء رام الله شهدت معركة بين الثوار والجيش البريطاني استشهد فيها والد الشاعر .
- (2) حي من أحياء حلب الفقيرة .
- (3) تقول الأسطورة : إن الأربعين نبياً ماتوا جوعاً إذ زهدوا في رغبتهم الوحيد ، بينما كانوا في مغارة الأربعين بجبل قاسيون في دمشق .
- (4) تقول الأسطورة : إن مجموعة من الملائكة قررت أن تهبط إلى الأرض وأن تتزوج من بنات آدم ، ولما فعلت ذلك سخطها الله إلى آدمية على جبل رمون - جبل الشيخ - في فلسطين .
- (5) قرية الشاعر .
- (6) مكان القرية .
- (7) اسم لقريتين في فلسطين الأولى احتلت العام (1948) والثانية العام (1967) والأخيرة مشهورة بصناعة الفخار .
- (8) من ملحمة طويلة .
- (9) وهو اسم طفلة الشاعر ، أيضاً .
- (10) تضمين بتصريف عن غارسيا لوركا .
- (11) إشارة لمصرع الشاعر لوركا على يد الفاشست .

نقوشٌ محفورةٌ على
مسلة الأشرافية

من مسافر

«إلى أصدقائي في المدينة القرية ، الذين عانقتهم والذين لم أعانقهم بعد . . . »

من دفتر (1965)

يا رفاقي
خطراتٌ لم أكنُ أعرفُ أني سوفَ أمضي
فعلى شنطٍ أغانيكمُ تعرّى كلُّ صمتي
نام موالاً على راحتكمُ
« قال غريب الدار
خلوني مع أهلي »
ومعَ الشمسِ التي انسلت على النحلِ
جريحه
هجم المدُّ بعيني حيناً
للدروبِ المترباتِ
المطفآتِ النورِ
بالأيدي التي اغتالت من الطفلِ القمرِ
« جلبت بيبكمُ »⁽¹⁾ ولكنني مضيتُ
إذ مضيتُ
قيّدتني الريحُ

شدتني إلى الرعبِ الجداريِّ المخاطيِّ الحجرِ

لم ألوحُ

فيدي كانت رصاصاً

ودمي فرَّ وغبْتُ

عبرَ تيهِ جارحِ الأنواءِ

في صدري جبُّ لا يحدُّ

كنتُ لا أعرفُ خطوي من خطاكمُ

أنتمُ مني

ومشواري . . . وأوفي وحروفي

منكمُ

عاشتُ يروِّيها انتظاري

والتقينا

ليتَ أنا ما التقينا

كنتُ ما أبحرتُ في الليلِ

ولا اشتقتُ إليكمُ

أو تمزَّقتُ عليكمُ

يا بقايا الألمِ المخزونِ من عمرِ قرانا

منذ أن جرَّ جرتُ ساقِيَّ على الجسرِ الليالي

ألقفُ اللقمةَ شحاذاً

غريبَ السمْتِ

مجهول الهوية
أعبرُ الجسرَ على أجداتِ قتلاكم
غريراً
لستُ ادري أنني أشهدُ موتي
كنتُ حفارَ حوارِكم بأظفاري
شكتُ مني
ما نادتُ عليكمُ
- الغريبُ العابرُ الأيامِ -
لا يعرفُ دربهُ
جائعٌ يستفُّ تربي
أطعموه
أو فدلُّوه على الدربِ «خطيئةً»
أو ضعوا في كفه نجماً نحاسياً
ونجمةً
سلبته الأعين اللصيةُ
عينيه
وقلبه
فتهاوى غارقاً في الرملِ
والرملُ محيطٌ زَيْفُ «الدَّالول» حدّه
- ههنا الأرضُ وصلنا

كان يوماً ليس كالأيام
فالربيعُ قوافل
زمرَةٌ تدفنُ زمرة
سمّدتُ أجدائنا البحرَ
فلم يطرحْ علينا بعضَ ظلِّ
أو ثمارِ
مضغتُ أفواهنا الزقومَ
في عصرِ المجاعةِ
وظمئنا
وذراعُ القفلِ ما امتدَّ
ليستجدي المطرُ
لم يعدْ يجهلُ كيفَ الدربُ
ما لونُ رحيله
غربةٌ تشربُ غربةً
مصهَّ الليلُ . . . وأنيابُ كلابه
لم تزل تنهشُ من أقدامه
لكن أياديه صواري كبرياءِ
والجباهُ الخضراءُ ما زالتُ يناععُ عواصفِ
خلنا يا موت
ما متنا بحبك

نحنُ سافرنَا وفي غربتنا
ريحها اجتاحتُ
وما أبقيتُ على القمحة قشَّةً
نحرثُ الأرضَ
ونعليها مشارفَ .

(أيار - 1965)

من دفتر (1966)

«إلى وعد . . . الحزينة العينين جداً»

(1)

- يهزني إليك شوق طائرٌ
ما أدركَ المواسمَ الخضراءَ
ما غمسَ المنقارَ في غديرٍ
ولا أراحَ جانحيه فوق غصنٍ

(2)

- رحلتُ في يديّ حفنةً شربتُها - من الأسي
هتفت من قرارة العذابِ
- ترى أراك بعدَ عامٍ
- يا وعدَ شاعرٍ حزينٍ
العامُ بعدَ العامِ قد يمرُّ
قد يجرُّ خلفه الأعوامَ
ونلتقي
الشمس ملكنا
والأرضُ
والزيتونُ
والأطفالُ

(3)

إليك أبحرتُ سفائنُ الرفاقِ
من زمانٍ . .

(4)

- كان يا ما كان
مسافرٌ يروُدُ أبحرَ المحالِ
يرسو على أكتافِ شاطئِ
يظنه الميناءِ
لحظة
ويختفي الميناءِ
حوتاً كان
غاصَ في مجاهلِ القرارِ
وينشرُ المسافرُ الغريبُ قلعه
لرحلة تطولُ
في الليلِ
والبحارِ
والجزائرِ البعيدةِ المنالِ
حلمه
ووعده

- يا أنت
أي رحلة إليك لا تشق

(5)

لا تطول؟
- أمدُّ يديّ خلفَ الموجِ
يا وعدي
وأسألُ عنكَ رَفَّ النورسِ الفرحانِ
أينَ جزائرِ المرجانِ
هدِّ النَّوءِ أشرعتي
وتمتدُّ البحارُ الحمرُ
من أزل
إلى أزلِّ

(6)

- أبحر . أبحر
فالبحرُ يحبُّ البحارة
ويعانقُ فيهمُ أشواقه
حتى الموت
فالشطُّ بعيدٌ والغرقى
من زمن كانوا بحارة

(7)

- نحنُ يا بحرُ نذورُ الأرضِ
لم نعرفُ مطايا غيرَ مَوْجِكُ
ما خشيناكَ
حلمنا بعضَ شركُ
ورميناهُ على رحبكُ
أكوامَ نجومُ
كلُّ نجمٍ فيكَ يا بحرُ فنارُ للسفينةُ

(8)

الصمتُ مدٌّ من حجورهِ القديمةِ الجناحُ
مدّه ونامُ
فوقَ جفنكِ الحنون
ما درى بأنه يموتُ
- فالريحُ في قلوبنا
تزفُ مركبَ الرفاقِ
يحملونَ موتهُ
ومن عيونهمُ يجمعونَ قطرةَ الحياةِ
- يا وعدَ ألفِ جيلٍ قبلنا
وبعدنا

تطفّحت قارورةُ الحياة

فاشربي

واستيقظي

شمسيّة العينين

ثرة الخدين والجبين

(9)

- صارَ ما صارَ

عُشاقها الفتيانُ أبحروا

ونقبوا البحار .

(أيلول - 1966)

من تجربة الصعود

من دفتر (1967)

الجنائز

كأننا ما نذرنا العمرَ من أجلكُ
ولا ارتعشتُ خواطرنا
ولا احتضرتُ أناملنا
ولا ضيفاً ثقيلَ الخطوبِ دبَّ الموتُ
في أعصابنا
إذ كنت غارقة بحمّاه
ولا سهرتُ محابرنا
مفتحة العيون
بليلة دهريّة الأبعادِ
والوطأة
كأننا ما غمسنّا الريشة البيضاء
من دمنا
لنزرع كبرياءَ الرفضِ
يا حباً طرحناهُ

ومن خزي نجر الخطو
نحملُ نعشك المهترَّ
فوقَ كواهلِ الأحزانِ
إنا قد قتلناك
فيا ثقلَ الدمِ المسفوحِ
تشربهُ ضمائرنا
وتحملُ وزره أعمارنا الشوهاءُ
يا مرأً جرعناه .

الندم

وعدنا نقرض الأحجارَ
في مدنٍ مسطحةٍ
بقلبِ سحائبِ «المازوت»
نذلِ جبالِ المهدومة الأشكالِ
وتحتَ رجومِ كلِّ الكونِ
نزحفُ مثلما زُمر الأفاعي
عمرها تزحفُ
تحنُ صدورنا للنورِ أجيالاً
بلا جدوى

نموتُ ظهورنا للشمسِ
يا ويلَ الزواحفِ من عذابِ الشمسِ

يقال :

تحدثُ الجدَّاتُ أطفالاً

كحبِّ القمحِ

أو أصدقُ

بأنَّا لم نكنُ نرحفُ

وقد كنَّا

نجيلُ عيوننا

نرتادُ تجربةَ السَّؤالِ

مريرةً كانتُ

تمدُّ عروقنا بالنَّبضِ

كي ندركُ

لم ندركُ

لأنَّ نثارةَ الأحجارِ

في أعماقنا رسبتُ

فلم نبصرُ

سوى عارٍ حملناهُ .

الحزن

نشفاقُ أن نلَمَّ أًفحوانَةً
نرشقها على جدائلِ المطرِ
وأن نعيشَ رَعشَةَ الطفولةِ الحنونِ
أن نرشَّ من قلوبنا
حظائرَ الفراشِ فرحةً
وقرصَ شَهدُ
وأن يغرقَ الندى أقدامنا
على طريقِ قريةٍ
تلوبُّ في انتظارِ هاجري القرى
إلى المدائنِ القاريَّةِ الدروبِ
والوجوه
نشفاقُ أن نقولَ
- يارفاقُ
يا صحابُ
الطيرُ في مشارفِ التلالِ
والتلالُ عند قبةِ السماءِ
يا حراجِ⁽²⁾
- نشفاقُ أن نعيشَ صدقنا القديم

مرَّتَيْنِ
لكي نموتَ مرَّةً
يا طولَ ما نشتاقُ
خلِّنا يا شوقنا العظيم
يا شوقنا رحماك .

الصبر

وخلصنا
نحنُ يا ماتمُّ لن نبكي
بكينا
فكفانا
لم يعدْ في مقلِّ الربعِ دموع
فصمتنا

... ..

... ..

السلوان

صحونا فوق أرضٍ ما بها عشبَةٌ
سوى سيقان أشجارٍ
تصدُّ قساوةَ الريحِ
عرايا من حكايا الأمسِ
والأسمال

بكارى

ليس نعرفُ ثمَّ طعمَ الأرضِ
يدهشنا شروقُ الشمسِ
صرعى التجربات البيضِ
نجهلُ أن للكلمةُ
قداسات

ومغتالين محترفين

أن لها حماةً

تجهلُ البارود

أن لأجلها . .

ماتت جموع الراحلين

على مدى زمنٍ

خرجنا عنه

أنكرناه

صحونا
ليس في آفاقنا فرحٌ
ولا حزنٌ
ولا من بأيدينا
ولا سلوى .

الجبل

نموت من تطلُّع الجموع
يا ميلادها
عطاءها
يا أنتَ
يا صمودها
وصبرها
وصمتها
وصوتها
روثك مزنةُ الدماء
عمدتك
عانقتك شهقة الرفاق
ذات عصر .

(أيار - 1967)

من دفتر (1968)

رؤيا قبل الفجر

الغريب : هل في الزمنِ الجائرِ ظلٌّ حكيمٌ؟

يفسّرُ سوقُ الشاةِ إلى المسلخِ

عجزتُ

وحرّتُ

جثوتُ على المذبحِ

- يا أمّي هل يرجعُ؟

القدسُ

وسكينُ الجزارِ على عنقي

ويسوعُ مضى

صلباناً تزحمُ صلباناً

والعصرُ صليبُ

ويهوذا سلطانُ لا يدمعُ

والناسُ خطاةُ يقتاتونَ الندمَ الأصفرَ

والجرذانُ العجفاءُ بجوفِ المصلوبِ

على الأبوابِ

بلا أحبابٍ أو أصحابِ

شَقُّوا أَعْيُنَهُمْ لِيُرَوْهُ اخْضَرَ عَلَى الْأَشْجَابِ

تَهْرَأَ

ذَابُ

ذَرَّتَهُ الرِّيحُ غُبَاراً

أَعْطَى مِنْهُ الصَّبْرُ مَرَاراً

مَا الْحِكْمَةُ ؟

الهاتف : ماذا ؟

الغريب : هل تعرف هذي الشاة مال الدرب ؟

الهاتف : ومن يدري

الغريب : هل تتألم

الهاتف : هل سلخ الجلد يضير الميت

الغريب : يفريني السلخ

فما الحكمة

الغريب : أشفق أن يأتي يوم العيد

فتذبح

الجزار : ذبحت

وأكلت الجرح النيء

قتت دماً

وفرحت

لست الفروة مزهواً بالعيد

صنعتُ من الأمعاءِ الدلو

الغريب : نشلتُ من البئرِ المهجورةِ

لم أشربَ

نشفتُ حنجرتي ولساني

فصرختُ :

- النجدة .

ردَّ قرارِ البئرِ

صدرَ

وصدىَّ

والصادي احتضرَ

تسوّكَ نقطةَ ماءٍ

الهاتف : هل تنشلُ ماءً بالغربالِ

الغريب : بلى

الهاتف : لا شك جُننت

الغريب : أنا

الهاتف : وأنا

والبئرُ

الجزائر : وطعمُ اللحمِ على السكينِ

الهاتف : جنونٌ

الغريب : ما الحكمةُ ؟

أن أقضي ظمأً فوقَ البئرِ

وليسَ لديَّ وعاءٌ

الجزّارُ : يا مسكينُ

الهاتفُ : اقفزِ للبئرِ

الجزّارُ : واربطِ في الساقِ رحي الطاحونِ

الغريبُ : أكادُ

الهاتفُ : حذارِ . . حذارِ

الغريبُ : ما الحكمةُ؟

أن أعطشَ دهرأً

أو دهرينِ

فسوفَ أموتُ على الحالينِ

الهاتفُ : كيف تفسرُ كونك شاةً

الغريبُ : بالحكمةِ

أن يولدَ إنسانُ أعمى

أن يولدَ دونِ يدينِ

أن يولدَ أبكمَ لا يسمعُ

غيرَ الأجراسِ الباكيةِ على شيطانِ الدّمِ

ولا يفزعُ

الجزّارُ : هيا وتمدّدْ فوقَ جذوعِ التوتِ

الهاتفُ : تمرّدْ

قاوم إغراء السكين
وقم

الجزائر : باسم الحكمة

الهاتف : باسم الإنسان تحرك

وباسم البرك

وباسم الأجراس المخنوقة

باسم القطعان السارحة

على الدرب الأحمر

قم

فسر

غير

واقلب نص الحكمة

الغريب : هل في الزمن الجائر ظل حكيم؟

الهاتف : أنت حكيم الأرض

فسد الدرب القائل

هدم أروقة المسلخ

وانتزع السكين

الجزائر : لماذا يظلم سقف الكون

الغريب : تعالوا يا غرباء

استيقظت الأجراس .

(نيسان - 1968)

من دفتر (1970)

بيسان والشهيد

كلمح البرق . . . يا بيسانُ

عبرتكَ برهَةً

ومضيتُ

معذرةً . . فوجهك لم يعدْ أخضرُ

وكحللك صار اسمتاً . . .

وباروداً

خشيتُ الموتَ

لكنني ابتسمتُ . . حملتُ جرحَ الجرحِ

لحظةً أن قفزتُ مشاتلَ الألغامِ

يا ويلي . . .

وخرّ عليكِ تحت « الدوم »⁽³⁾

جررناه

وقال كلامٌ

- أحبائي . .

أودّعكم

وأوصيكم

ولم يكمل
حملناه إلى أمه
فما اهتزت لها في الصمت أهداب
ولا حدث
ولكن أغرقتنا الريحُ بالأَمطارِ
يا بيسانُ
نذكره
حنوناً كانَ
أوفى من رغيفِ الخبزِ
من قمرِ القرى
في الليلِ حين يُطلُّ
ماتَ على يدك
العمرَ . . . يحلمُ أن يعيشَ على يدك
وأن يرمي على كتفكِ حطتهُ
وكم غناكِ . . . يا ويلى
مضى وكأنه ما زال يروي لي
قصيدته الوحيدة . . .
واسمها . . . بيسانُ
منقوش على الرشاشِ
وفوق بطاقة حمراء

طَيَّرَهَا لِأَحْبَابِهِ
رَوَى لِلْبَحْرِ ،
وَالصَّحْرَاءِ
وَالْأَرْيَافِ
وَالْعَمَالِ
وَالْأَطْفَالِ
قِصَّةَ حَبِيبِهِ وَمَضَى
وَخَلَانَا رَجَالاً فِي قَرَارِ الْغُورِ
يَسْكُنُ رُوحَهُ فِينَا
وَلَمْ يَرْحَلْ
وَنَشْهَدُ أَنَّهُ يَسْهَرُ
وَيَعْبُرُ فِي الطَّرِيقِ النَّهْرُ
وَيَحْفَرُ فِي عُرُوقِ الصَّخْرِ خَنْدَقَهُ
- «لِمَاذَا أَنْتِ يَا بَيْسَانَ مَسِيئَةٌ»
وَكَانَ . وَكَانَ
غَرِيباً كَانَ يَعْمَلُ فِي الصَّحَارَى الْجُرْدِ
بِنَاءً
وَيَزْرَعُ فِي مَشَارِفِهَا
وَيَحْضِنُهَا
فَتَخْضُرُ

ويحلمُ في ليالٍ حصادها بالعرسِ
لكن غابُ

- يا بيسان -

قربَ الشيكِ
هل أسبلتِ جفنيه
وهل قبّلتِ جبهته
قبيل العرسِ أو بعده
عبرتكَ آه لو تدرينَ
كان الحبُّ صاحبيَ
الذي عانقتهُ
ومضيتُ أحملهُ
على رثتيّ إنساناً وجدولَ دمٍ
حبيباً مترفَ الجثمانِ
مرمياً على شفتيّ موالاً
بلا شفّتينِ
غنيّناهُ جيلاً في زمانِ العقمِ
أخصبَ عندما لاقاكِ
لم ييخل
وحطَّ على جبينك طيرهُ

فهوى

هجمت عليه . . لملمته

عبرتكَ وهو في عينيَّ

أغلى من ضيا عينيَّ

أغلى

يا حبيبتى الحزينة . .

فافرشي الصيوانُ

عني للعريس

وأوقدي شمعاً وردِّي القدرَ فوق النارُ

آت كان من عمر الثرى

ما زال آت

آت

لمحتك عندما ابتسمت يداك

وطوفته

رحلتُ لم أبصرُ

سوى ظليكما كانا على النهرِ

وغَيَّني عن الكلماتِ

صوتك أنتِ

يا بيسانُ

أذكرُ قلتِ :

- صابرة أنا يا حبّ
فاغمرني
غمرتك
هل جدلت لعرسنا الإكليل
يسأل غير هذا الليل
فارسك الشجاع المرّ
لكن بعد . . . لم أسمع
سوى شيءين
همسك أنت
والطلقات . .

(آذار - 1970)

من دفتر (1970)

موال

عيونك أنت غارقتان
بالمطر الذي يبكي
لقاء اثنين
فراق اثنين
عند « الشيك »⁽⁴⁾
لحظة أن عبرت الليل
ودعني
بموالين . . موالين
- « يا عيوني . .
ويا قلبي . .
عتابا ما يغنيها
سوى عشاق ديرتنا
الحزينة
اليوم
أنا غنيت رجعتنا »
... ويا حبا أخليه على الطرقات

أرحلُ عنه
للطرقَاتُ
أُعلّقُ في جوانبها
نجوم حكايتي
والحبَّ
ما أحلى حكايتنا
أزرعيني خلفَ جيلِ النخلِ
خلفَ النهرِ
«ودّيني»
على عينيكِ
في غوريهما
الشرقيِّ
والغربيِّ
«جبيني»
وودّيتي
على بلدي
عصافيراً من النيرانِ
وخطواتٍ وأغنيةٍ
.....
أحبُّ بوجهك المفتوحِ الخدينِ

للمطر الأصيلي
المعذب
يا مودعتي - قبيل
تعانق الكفين
والكلمات -
نبع الشعر
خفق مسيرتي للضفتين
إليك
للشطان
للمدن السماوية
وللقمم المشعة في سما عمان
يا أحبابها الشجعان
لاقوني ..
أعود وفي سراييني
حكاية نخلة
طرحت على الفقراء - بعد
مشقة السنوات -
ضحكتها
وأكواماً من البلح النبيذي
المعطر

من عيون حبيتي
زوّادتي . .
في الرحلة الأخرى الشتائية .

(شباط - 1971)

نقوش محفورة على مسلة الأشرافية

عندما أسندُ للحائطِ ظهري

ولذكَراكِ . . . جيني

يسقطُ الخوفُ الذي يمشي على الأطفالِ

من سطحِ

لشباكِ

لسطحِ

جثةً في السَّيلِ⁽⁵⁾ مشنوقاً بـ «قرمول»⁽⁶⁾ يتيمة

وتمرينَ بثوبينِ على قلبي

دمي

والليلِ

ألقاكِ ذبيحاً وحزينة

- خطوتي اغتيلتُ على حضني طفلة

فترنحتُ

هوى للقاعِ جذعي

جبهتي

في الظلِ مرآةً

وفي الشمسِ عيوني فحمتان

- أُّبها الليلُ الشتائيَّ الأخيرُ

رُدِّني في باطنِ الأرضِ

إلى العمقِ

جنيئاً

تحلمُ العافرُ

والباكونَ

أني سوف آتي

رُدِّني

كالبرقِ

أسرعُ

- إنني ودَّعتُ أفراحي

وأحبائي

وصحبي

ومشاوير النشامي

وأبي

مَسَحَ السكين في فروة رأسي

إيه . . إبراهيم إنني نادم

يؤسفني أنني أطعتكُ

ما فدانني الله

أو أمي حممتني

- أيَّها العيد الذي يذبحني أهلي

على عنته
في كل عام
إنني إسماعيل
لحمي ليس يؤكل
- إنه صوتي على النصب
وفي الساحات
منشور
فلميه . . انصتي
للصمت صوت
واهبطي الآن على أجنحتي
الملقاة في المنفى
نعاساً
متعباً يحملني ظلي
على أكتاف متعب .

(2 آذار - 1971)

إلى أمي . . فاطمة حسين

«فاطمة حسين جائعة ، وظمآنة ، عندما طلبت من السجناء ماءً قاتلة : يا بني . . نهرها ، وداس وجهها بحدائنه ، أما السجناءة «مفيدة» فتضربها كل يوم بموعد وبدون موعد . لكن أمي فاطمة حسين . . فدائية»

لأنك أنت يا أمي الفدائية
بكِيتِ عليّ
لما هزك السجن
من عينيك
من لحمك
ومزق ثديك المتهدل المحروق
انكسر صوتك المهتر
- «يا أبنّي . . ولو يامّه»
لأنك أنت واقفة
ومرمية
وعلى الأرض الصديديّة
أنا صامد
«ولو يامّه» . . .
أنا . . لييك

ابنك لم يزل في الريحِ صاريةً
ولم يتعبُ
وأقسمَ بعدُ لم يتعبُ
ولن يتعبُ
برغمِ جبينه المذبوحِ
وراحته التي تصحو من المنفى
على المنفى
تطيرُ على سقوفِ مدينتي
عمانُ

يا عمانُ مدي موتك اليوميِّ
للمدنِ السياحية
ليولدَ ابنك المنسيِّ
في حاراتها
ليبيك
« يا يمة »

الفدائية . . .

لأنك أنتِ قلتِ له :

- اشنقوني

عاشت الثورة

أنا عايشُ

وفي صدري . . بكاؤك أنتِ
في عيني
قذى عينيكِ
والظماً الذي يغزوك في بدني
وجوعك . . جوع أهلي
جوعُ أمتنا
المجاعة . . في زمان القحطِ
تَبَّ الآكلِ النَّائمِ
وتبَّ البائعُ . . الشاري
أبو جهلٍ أبو لهبٍ
وعشت كبيرةً . . في السجنِ
فوق السجنِ
يا أمي الفدائية . . .

(حزيران - 1971)

آخر برقية من (أبو علي إياد)

الموقف هذي اللحظة جيّد
والثورة لن تُهزم
جوعى نحن
وعطشى
والقصفُ شديدٌ
ومركّزٌ
والموقفُ جيّدٌ
نحنُ الآنُ بقلب الطوقِ
الدباباتُ تُسدُّ الدربَ
إلى غرب الموقع حيثُ النهرُ
عطشى
جرحى
عجلون تقاتلُ
والثوار أفادوا أن الموقفَ جيّدٌ
ما أخبار القوات الأخرى
واليرموكُ
سنصمد فالموقفُ جيّد .

(18 تموز - 1971)

الهوامش :

- (1) جلبت : تشبثت .
- (2) يا حراج : تفيد للتحدي باللهجة الشعبية .
- (3) شجر السدر .
- (4) الشيك : الشريط الشائك .
- (5) السيل : سيل عمان .
- (6) القرمول : خيط من الصوف او الحرير تجدل به المرأة الريفية جدائلها .

المشردّ والحصاد

المشرد: الحزنُ يا صغيرتي والأوفُ توأمانِ في عيوننا
والليلُ حطَّ في صدورنا الرحالَ
لا مفرَّ للذينَ في عيونهم عيونُ
وللذينَ في أكفهم همومهم حناءُ تحتَ جلدها ووشمُ
عظامنا للحزنِ شباباتُ
ودفقةً دفقةً نعيشه على شفاهِ شعبنا
وفي عيونهِ

وفي انتظارهِ للَحظة التي تهزُّه . .

تهزُّه يا فجر⁽¹⁾ فامنحني واشحنني حزمةً من الشعاعِ
في عروقه تحفِّزُ إلى الوثوبِ نحو دارتكِ
يجر نفسه على الجليدِ والجليدُ في عظامهِ
وحوله يذوبُ حزننا يذوبُ

وأوفنا تمتدُّ تغمرُ السهوبَ والجبالَ موجةً محمّلةً

بالخصبِ يا صغيرتي

بالحبِ يا حبيبتي

الحادي: «احنا زرعنا وما خسرنا زرعنا»

«يا ميحنا»

هيا عتابا ظلي عمري وانجلي

تا يصير صدري من همومه منجلي
وأنزل على الزرعات واسحب منجلي
واحصد منايا ومين يغمّر بعدنا»

الحصادون: «يا منجل الحصاد هذي حصتكُ

الواد والمعناة وانا زلمتك

والهيش والبياض تحت رحمتك

والجمل والبيدر بدهم همتك

والصاج والطابون

والأم والأولاد

فرحتهم فرحتك

يا منجل الحصاد»⁽²⁾

الصغيرة: الريح يا أبي تحملُ لي أهزوجةً الحصادُ

ترعشُ لي دمي

حنونة دافئة

أواه كم سمعتها من قبل مولدي

سمعتها لما مضتُ أمي

سمعتها لما أسرَّها المزاربُ للجرَّة

فزغردت

وزغردتُ أمي

زغرودةً مشدودةً بخيطة حزن ما لها رنةٌ

وكنْتِ أَنْتِ الحَيْطُ حَوْلَ معصمِكُ
كفالكِ فَوْقَ ركبتيكِ صامتاً
والأوفِ يا أبِي والحزْنُ توأمانِ في عينيكَ
صوتِ الموتى : يا حكايا الدمِ يا رعبَ الحكايا
أنتِ جسرٌ مدّه جيلُ الخطايا يا زمناً نجهدُ بعده
لم نزلْ نعبُرُ فوقه

مزقاً صرنا على أحجاره
ودمانا اندفقت تروي حكاية

الجسر : غوّل الموت على قريتنا

أزرقَ السحنةِ والعينينِ ثلجي الأصابعِ

ذبحَ الشمسِ على مشرقنا

وأضاعَ الطيبِ من طهرِ ثرانا

بيستُ في كرمنا داليةً

وهوى الزيتونُ أحطاباً وناراً

واليتامى

فرشَ الجذبُ على أعينهم موسماً طال وما زالَ يطولُ

والعدارى الزنبقاتُ السودُ مزقنَ الأغاني

عشنَ يندبنَ فتانا ورفاقه

عاد «للسيلة»⁽³⁾ فالتّمَّ حواليه رفاقه

كانت الوديان تهتز على وقعِ خطاهم

يا خطاهم

خرست لما سمانا أمطرتُ شلالَ نارُ

النادبة: «طلت البارودة والسبع ما ظل

يا بوز البارودة من الندى مبتل»

الحادي: «هي هي يا راكب الحر المعلّى

تسبق الطيرِ خفافِ الجناحِ»

النادبة: «حذرك يا سبع من طيحة الوادي حكمت⁽⁴⁾ سربتك

جهال واولاد»

الحادي:

«بين بلعا والمنطار صار شي عمره ما صار

والدبابة أحرقتها والعسكر ذبحناها»

النادبة: «الراس ما ادري شيب ولا من الندى

قاطب عليه من الغبار ألوان»

الصغيرة: الريح يا أبي تحمل لي أهزوجة الحصاد

المشرد: أسمعها

الصغيرة: أهزجها غني معي

المشرد: غنيت

الصغير والمشرد: لعلنا نسيرُ حيثُ يدفقُ الغناء

وحيثُ تمطرُ العيونُ حَبها

وحيثُ تغرقُ الصدورُ بالندى الموردِ الدفيء

وحيث زحفُ غابةٍ من المناجل الملتهبة
بالحب للسنابل

الحادي: «حصاد أرجب⁽⁵⁾ منجلك»

الحصادون: «أهلاً وسهلاً شرفونا احبابنا»

المشرد: «قال المعنى والأسى كاويه»

في ليلةٍ ما كان فيها ضوء

ما كان فيها صوتٌ

ما كان فيها نسمةٌ

كنا على العيدان مشبوحين

شدت سواعدنا

والليل ضيَعنا

نمنا على العيدان مهزومين

وحلق الوطواط في سمائنا

وطال ليلنا

يا ليلنا كم طال

عشراً من الأجيال⁽⁶⁾

تخدّرت تماوتت واحتضرت واستيقظ المحال

فك الرفاق فجأة سواعد الرفاق

وأبرقت سهولنا

والتمعت مناجل الرجال والرجال يزحفون

وبشّرت نساء شعبنا بموسم الحصاد
ووحده المشرّد الكئيبُ ظلَّ راقداً
في ليلةٍ ما كان فيها ضوء
ما كان فيها صوتُ
ما كان فيها نسمةٌ تزفهُ أهزوجةَ الحصادِ
صوت الصمت : لأننا لم يعد مجهولنا المجهول
لأنّ الدفء غادرنا وضيعناه منذ البدء
لأننا ما عرفنا أن غربتنا ستغربُ
لأننا حين أبحرنا
مضينا نسرق اللحظات نغزلها من اللاشيء ،
واللاشيء
يغزلنا خيوطاً عنكبوتية
لأن رحيلنا عقمُ
لأننا لم يعد يجدي تشبثنا بحبلِ هواءِ
لأن الحلم دمره انتظارُ الحلمِ
لأن مفازةً من حولنا تمتدُ
لأن مسافة ثلجيةَ القسمات نامت بين وجهينا
الزجاجيتينِ
لأن عروقنا يا غربتي الأبدية الصماء ما عادت
تنادي اثنينُ

عشنا العمر زيتاً عامَ فوقَ الماءِ

المشرد: أنا يا غربةَ الأشياءِ يا ندمي

أعيش على عطاءِ دمي

لكلِّ مسافرٍ في راحتِهِ يضمُّ فاجعته

لكلِّ مقلِّعِ العينينِ من خلعت أظافرهُ ومن أكلتُ جبالُ

بلادنا قدميه لكن عاشَ يزحفُ صامداً الجبهةُ

أنا ما عشت غيرَ مشرِّدٍ كفاهُ تلتمسان بعضَ حنان

أنا ما عشتُ إلا هائماً لا زاد لا لقمة

أفتشُ عن ظلالِ جدار

وعن أفقٍ يريحُ لهائي المرهقُ

يزيبُ بناه الصخرَ الذي ما كان أثقلُ منه في صدري

يومَ ذاتِ الصخرِ

مشينا كنتُ أنثرُ أنجماً يبست وما امتدت يداكُ

تلم بعضاً

من نثاري ليت أني ما عرفت مرارة الحية

مضيت يشدُّ خطوك جاذبٌ للموتِ حيثُ ولدت

ما أعطيتُ

غيرَ الموتِ من حكمة

ظننت بأنني مذ كنتُ أعشقه

وما أدركت أني حيثُ يولد شعبنا خيمتُ

المحنة: كأنك ما حفظتَ قداسةَ الكلمةِ

حرقَت دمي إليك وأنت تبعدُ

كأن صويحباتي قلنَ أذكر قلنَ :

احترسي

فليس لمثله خلقتُ بناتُ العزِّ ليس لمثله يهتزُّ منكَ

دعيه مشرداً يهوى مشرداً

وزيفُ كلُّ ما بيدي

أحقاً كان زيفاً حرفك الأخصر

ولقيانا؟

المشرد: أكادُ أقول

المحنة: أنت تجرُّ آهاتي وتزرعُ مهجتي حزناً على حزن

ترى أتحبُّني؟

صوت الصمت: يا وهم أنت بعدتَ آماداً وما عشناك إلا خفقَ

محتضرينُ

المشرد: سأدعو الريح كي تجتثَّ رَسَمَ خطي تركناه

على الرملِ

الريح: كأنَّ الرملَ ما كانا

المحنة: ولا كانت خطانا المورقاتُ عليه

صوت الصمت: ولا كنا . . ولا كنا

المحنة: أنا في الريح أرتحلُ

المشردّ: أنا ما عشتُ سوفَ أزلزلُ الكلمة
وأرسيها على نبضِ المسيرةِ تحقنِ الأجيال
رغم نداءكِ الكافرِ

المحنة: أيها الجسر الذي امتدَّ صحارى
قد سئمتك حذاء و «تناويح» و وعداً

الحادي: «غزوا البيارق عاجل
وتبشري يا بلادنا»

الحصادون: وأيقظ المشردّ الكئيب فجرنا العظيم
يا فجر مدّ سلماً من الشعاع للسماء
وأشبع لنا الهواء
بالنور علّ نائماً يفيق أو يموت .

(مجلة «الآداب» - 1966)

الهوامش:

- (1) اسم طفلة الشاعر .
- (2) «المناعة»: الأرض المستطيلة الشاقة . «الهيث»: الأرض الجبلية الوعرة . «البياض»: الأرض ذات التراب الأبيض . «الطابون»: فرن بيتي يشبه التنور .
- (3) اسم قرية الشاعر .
- (4) «حكمت» لأنها .
- (5) «أرجب»: سنّ
- (6) عصور الانحطاط .

تَخْرِيبَةٌ
خالد أبو خالد

« اجتياز الليالي الألف يبدأ بخطوة واحدة »

المهلهل

عندما خلعتُ جلييلة بنفوذها المهلهل، وأصبحَ صعلوكمًا في أحضان الرعيني الغازي، وهو ابن أخت التبع حسان، وابن أخت البسوس، وذلك بهدف تثبيت جساس ملكاً على العرب .

لكن المهلهل قاتلهم، كما قاتل برجيس الصليبي حليفهم، وحقق في قتاله الطويل ضدّهم مجموعةً من الانتصارات وألحقَ بجساس أكثر من هزيمة، لكن جساساً لم يمت، كما يروى، على يد ابن كليب، بل ظلَّ حيّاً يلاحق المهلهل أينما ذهب، حتى أنه كلفَ عبيدين من عبيده باغتياله في غفلة، ورغم الجراح الخطيرة التي أصيب بها المهلهل، إلا أنه نجا من الموت، لكنّه ظلَّ صعلوكمًا مطاردًا من جساس، وتؤكد الروايات الواردة من داخل وخارج فلسطين، أن جساساً ما زال متحالفًا مع الغزاة، وأنه شخصياً يواصل ملاحقة المهلهل بهدف اغتياله .

*

توقّفْ أيُّها الراوي

ومعدرةً

فلستُ أميرها

لكنني الصعلوكُ

من خلعتهُ قبل الغزو عاهرةُ القبيلةِ

والأميرُ
وشلَّةُ الأُمراءِ
مَنْ أكلوا على السَّاحاتِ من رثتي
اختنقتُ
تخاطفوا شرفي
وأشلائي
ومَنْ باعوا لبرجيس الصليبيِّ انتصاراتي
دمي
ومراتي
وتغافلوا عني
أنا حامي الحمى
عُلِّقتُ في بيروتَ تحتَ بيارقِ الباشا
وهم ناموا على مجدي بأرض الشامِ
فاجتاحتهم العقبانُ
ما ندما
ولا في الذِّكرياتِ استحضروا وجهي
وتاريخي
على أبوابها اسمي
وآثاري
وأرديتي

وأطفالي
إلى النسيان خلوني
وباعوني
بلا عينين
في مرج ابن عامر كنتُ سنبله
وأحجاراً
وزيتوناً
وسلكاً شائكاً
طفلاً
وبتراً طافحاً بالدم
شيخاً
كان عبدهم يُغافلني
ويطعنني
فأصعدني في قرار الشمس تهمتهم
ألاحقهم على الضوئين
ألعنهم
وأقتل منهم عبداً
فيقتلني العبيدُ
أموتُ
لولا أنني عاهدت أيتام القبيلة

أَنْ يَمُوتَ عَلَى يَدِي جَسَّاسٌ
وَأَنْ أَبْنِي عَلَى أَنْقَاضِهِ وَطَنِي
وَفِي حَيْفَا
عَلَى الْمِينَاءِ
أُعْلِنُ أَنْنِي الصَّعْلُوكُ
فَارِسُهَا
الْمَهْلَهْلُ
لَيْسَ فِي كَفِّهِ غَيْرُ جِرَاحِهِ
وَالسِّيفِ
وَالشُّهْدَاءِ
مَنْ قُتِلُوا مَعِي فِي اللَّيْلِ
فَوْقَ الْخَيْلِ
يَا زَبْدَ الْبَحَارِ ذَهَبْتَ
وَأَنْزَرَعْتَ عَلَى قَلْبِي
وَفِي الشُّطَّانِ . . قَنَبَلَةٌ
وَمَشْنَقَتِي عَلَى عَكَا
ثَلَاثًا⁽¹⁾ رَمْتُ أَرْدَانَهَا حَوْلِي
وَضَمَّتْنِي
فَهَزَّتْنِي عَلَى شَعْبِي -
وَعُظْبَةُ تَعْلَبِ

ما بين بئر السبعِ

والصرفند⁽²⁾

كنتُ أموتُ في الصَّحراءِ صعلوكاً

ومخلوعاً

أغبرُّ على مواقعهم

وأطعمُ حربتي لحماً

وأطفالي

وأروني ناقتي من عزِّ رأسِ العينِ⁽³⁾

ميداني فسيحٌ

واسعُ الأرجاءِ

يسبقني رصاصي

يسبقُ الكلماتِ

شاهدتي - أنا القسَّامُ -⁽⁴⁾

شاهدتي

على السَّهلِ الذي يمتدُّ في يعبدٍ⁽⁵⁾

هناك وصلتُ والشَّجعانُ عند الصَّبحِ

قاتلنا الرِّعيني

فانبرى الجسَّاسُ خلفَ ظهورنا

يجتاحُ خابيةَ اليتامى

يخلطُ الملحَ بزيتِ الدارِ

بالبسط العتيقة
والعليق⁽⁶⁾
وبالوجوه السمر
تختال البسوس
تصول في صدر اليمامة
خنجرأ يهوي على بغداد
يحصد نخلها

وشبابها
جمل على جمل يخور
دماؤنا . .

يا ميسلون . . وكنت فاديتي
فما خجلت جليلة من بناقنا
وباعت نهدها ظهراً
ونامت في مضاربهم
على حزن الرعيني المدجج
ما تعارفنا

جهلئك يوم أن حرقوا القرى
ودمشق
مدوا جثتي في الغوطتين
ومدني بردى

فُتِلْتُ عَلَيْهِ
فِيهِ دَفَنْتُ أَحْزَانِي
وَأَحْبَابِي
وَكُنْتُ عَلَى يَدَيِ خَصْمِي
مَقْنَعَةً بِخَوْذَتِهِ
وَجَسَّاسٌ يُدَلُّ عَلَيَّ مَخَابِئَنَا
تَلَقَّنِي عَلَى جَسْرِ الْمَجَامِعِ (7) قَلْبُهَا فَخَفَقْتُ
دَاوَانِي الرَّجَالِ
شَفِيتُ
نَشَرْتُ فِي سَاحَاتِهَا صَوْتِي
وَعُنْوَانِي
عَلَى وَادِي الصَّلِيبِ (8) نَصَبْتُ أَقْوَاسِي
انْتَفَضْتُ
تَجَمَّعَ الْفُقَرَاءُ مِنْ حَوْلِي
وَكَبَّرْنَا
فَخَبَّأَ رَأْسَهُ بِرَجِيسٍ تَحْتَ حِجَارَةِ الْمَبْكِيِّ
ضَيْلًا صَارَ «هَسْهَسَةً» (9)
وَنَادَيْتُ الْيِمَامَةَ مِنْ جِبَالِ الْقُدْسِ
هَذَا يَوْمُهَا
وَاللَّيْلِ

والعُلَيْقُ
والليمونُ
والزيتونُ
والأشواكُ
والفقراءُ
والصَّخْرُ الذي حملَ الوصِيَّةَ لي
تُخبِّئني
وتحميني -
فأعرجُ في المساربِ
قريتي تصحُّو على الأطواقِ
والطَّلقاتِ
والأطواقِ
والطَّلقاتِ
والأطواقِ
والطَّلقاتِ
والرَّعبِ الذي يخشاهُ أيتامي
فتنفجرُ القرى
وتصيرُ كلُّ قلائدِ النسوانِ باروداً
وخيلاً تعبرُ الطرقاتِ
تقطعُ دربَ قافلةِ المغيرِ

على منازلنا
يحطُّ البينُ
خلفَ صُفوفنا ناحتُ جليلاً
والوطاويطُ الضليلةُ
والغرابُ
تجمَّعوا
وسبوا بناتِ كليبَ
جزوا من جدائلهنَّ شارَاتِ الهزيمةِ
أشعلوا في الليلِ مبخرةً
وقنديلين
واختلطَ النحيبُ بزادِ أعوامِ المذلةِ
فتشوا عني
طلبتُ بألف دينارٍ
فما قبضوا عليَّ
جرحتُ
ما قبضوا عليَّ
أسرتُ
ما شهدوا محاكمتي
اختبأتُ
فررتُ

وجهي في الشريعة متعباً
ومهدماً
ومطارداً
عمَّانُ أوتني
فصادرني الأميرُ
تخاطفَ الأعوانُ أسلحتي
على بوابة الرمثا⁽¹⁰⁾
وصلتُ دمشقَ
كانَ الجندُ في أيديهمُ صوري
وجسَّاسٌ يدلُّ عليَّ
هرَّبني إلى الصحراءِ مطرودٌ
على صدر الرَّمادي⁽¹¹⁾ بتُّ
والأحزانُ
والأمواتُ
مغترباً
ومنبوذاً
ولا من يشتري ثوبي
وأوراقِي
وأجوبتي
بشربة ماءٍ

بَكَيْتُ عَلَى الْيَمَامَةِ حُمَلْتُ أَسْمِي

الْحَدَادَ

الْمَوْتَ

عَذَّبَنِي إِلَيْهَا الشَّوْقُ

نَادَانِي

انْكَفَأْتُ عَلَى يَدِي

وَتَفِيَّاتُ ظِلِّي عَيُونِي

مَا أَكَلْتُ

أَكَلْتُ مِنْ لَحْمِي

شَرِبْتُ مَرَارَتِي

عَرَقِي

تَعَثَّرَ إِخْوَتِي

فَغَرَقْتُ فِي مَلَا حَةَ فُرِدْتُ عَلَى جِلْدِي

عَشَيْتُ

تَعَرَّفْتُ بَغْدَادُ فِي وَجْهِي عَلَى أَطْفَالِهَا الْآتِينَ

صَدَّنِي الشَّوَارِعُ

نَهْتُ

لَا أَدْرِي

وَأَوْتَنِي الْحَوَارِي

نَمْتُ

لا أدري
سقطتُ
ومتُّ
لا أدري
صحوتُ على المدينةِ
صوتها
وكلُّ جموعها في النهرِ
فوقَ النهرِ
في الشرفاتِ
والأحياءِ
تدققُ بالدمِّ العربيِّ
يشربه الصليبيُّ المغيرُ
وينحني الجسَّاسُ فوق يديهِ
يسألهُ السلامةَ
ضاجعَ الغازي . . الجليلةَ
والجواريَ
والقصورَ
وصبَّ في نهرِ الفراتِ دمي
فطلعتُ في شطآنِ يافا مبحراً
ورسوتُ

عدتُ إليك يا وطناً تخربُهُ العناكبُ
والجوارحُ
عدتُ فاطراًحي يمامةَ ثوبك الليليِّ
لُميني على أكتافِ أهلي
واصمُدي
ويلُ لهم مني
أعودُ وموعدي أيارُ
ما أخلفتُ للأيتامِ وعداً
زغردي لي . . .

(دمشق - 2 / 3 / 1972)

سيف بن ذي يزن

رُويَ عنه أَنَّهُ كانَ ملكاً .

ولكنني أعرِفُ أَنَّهُ كانَ فقيراً مشرداً مثلي .

ورُويَ أَنَّ أمَّهُ جاريةٌ حبشيةٌ .

لكنني أعرِفُ أَنَّها امرأةٌ عربيةٌ سبَّها الأحمشُ في إحدى غزواتهم ، وهي ما

زالت حتى الآن سببية أحمش هذا الزمان ، ذوي الشعر الأشقر ، والعيون

الزرق ، والقلوب السوداء .

وفي رواية أعدائه عنه أَنَّهُ أَحَبَّ الكثيرات من النساء . والحقيقة أَنَّهُ وفي حبيبته

شامة ، وما أَحَبَّ غيرها .

ولا تصدَّقوا أَنَّهُ استخدم الجان ، فأنا أعرِفُهُ بطلاً قاتل بمجرّد يديه ، وكلماته ،

في كثير من المعارك قبل وبعد أن حمل البندقية .

وليس صحيحاً أَنَّهُ حَقَّقَ طموحات قومه ومات .

فهو لم ينتصر بعدُ

ولم يمُتْ

ففي الأنباء . . . أَنَّهُ الآن في المعركة .

*

ويولدُ من بينكم مثلما تولدونَ

ويكبرُ في رحمها تسعةً

مثلما تكبرونَ

يحبُّ

ويعشقها شامةً فوقَ خدِّ البوادي

وفي خدِّه شامةٌ

كلَّما زفَّها الدمُّ تخضُّرُ

تورقُ

قبلَ التلاقي

فُقبلَ احتفالِ القبائلِ بالعرسِ

غالوهُ في عصرِ أيلولَ

سببلاً توهَّجَ في حمأةِ الأرضِ

والمدُّ

والجزرِ

هذا المحاربُ يولدُ قبلَ النفيرِ

وفيه

يفتِّشُ بالسيفِ عن أمِّه

في الصناديقِ

بينَ جموعِ السَّبَّايا

اختفتْ أمُّه

ما تزالُ

ولا يلتقيها

حبيته . . عرسها الدمويُّ
تذفُّ إلى الملك الحبشيِّ
ولكنه - لا يموتُ كما قيلَ فوق الأرائك -
يولدُ في كلِّ صبحٍ
ذراعاهُ سيفٌ . .

ونخلةٌ

وفي قبضتيه اليراعُ ارتدى حربةً
خلفه النيلُ يجري
على خطوتهِ

ويجرفُ أعلى الجبالِ
ووجهته مصرُ

لكنه اغتيلَ
في بابِ أفريقيا علقوهُ
وكانت له كتفُ عمانَ

أحضانها

معبراً عاشقاً

ثمَّ كانت له مذبحةٌ .

وظلَّ الصليبُ على القدسِ

يشهدُ

من جلده يصنعونَ طبولَ الحروبِ

- التي زيّفوها -

وما أدركوها

برغم تنكرهم في جبال العُبار

التي خلّفتها سنايكُ مهرته

وهي تجمّحُ نحو الجحافل

لكنّ رمحاً من الخلف أدرك ما بين جنبيه

أدرك مهرته

خرّ بين الغزاة

وبين الحماة

على ساحة فصلت بين حدين

أو مخفرين

فيشربُ جندُهُما الشاي مُجتمعين

ولكنّما الأرضُ . . أرضُ حرامٍ

كما سجّلتها الوثائقُ في الوطن العربيّ

الذي فيه

خرّ

ولكنّه لا يموتُ

يحاربُ في كلِّ معركةٍ

لحظةً

أو يُحاربُ جيلاً

ودهراً
فَسَيَّانَ
هذا ابنُ ذِي يَزْنَ بَيْنَنَا
يَتَنَاسِخُ فِي جِيلِنَا
وَالصَّحَارَى الَّتِي اخْضَرَّ فِيهَا
وَمَنْ أَجْلَهَا
احْتَرَقَتْ مَقْلَتَاهُ عَلَى الشَّمْسِ
مَنْ أَجْلَكُمْ
وَهَوَّاتٌ غَدَاً
فَارْقَبُوهُ
عَلَى طَرْفِ اللَّيْلِ يَفْهَقُ صَوْتُ
يَضِيءُ الْجِبَالَ
الْحَوَارِي
الْقُرَى
وَالدُّرُوبِ
الَّتِي قِيلَ عَنْهَا:
المَشَقَّاتُ فِيهَا
نَهَايَاتُهَا فِي البَعِيدِ
- البعيد -
اخْتَفَى مَرَّةً

كان طفلاً

وقيل : طوته الرمال

على أثر دارس من بقايا مدينة قوم
أتاهم على غرة في الزمان السحيق الوباء
فماتوا

ولما استفاقت طيور المدينة

طارت عليها

وكانت خراباً

ومنهوبة القلب كانت

فمدت جناحاً على الطفل تلك الطيور

وحنت عليه

وحنت عليه الغزالة

ألقت له ثديها

أرضعته

وجنية أرضعته لهيباً

وراحت

ولم يكُ يجهل أن التي ضيعت أمه

الحبشية

أن أباه قبيل الرحيل الأخير

تناول سمّاً على راحتها

وماتَ على قَدَميها
فلَمَّا خَلتُ
رَدَّها أَصلُها الحَبشيُّ
فأخفَتُهُ ليلًا
سَرَتُ
خَلَفَتُهُ على عِرْقِ بِلانَةٍ
جائِعًا
يأكلُ العَطشَ المَتيسِّسَ في حلقه
كالزُّجاجِ
مضتُ عنهُ
تُنَبِّسُ ما خَلَفَتُهُ الحَزِينَةُ للعِيدِ
حتى ارتَدَّتْ ثوبَها
والترَّاكي
أساورَها
بيتَها
والعطورَ
السَّمَاءُ التي فوقَهُ
طيرتُ في فِضاها الغرابَ المفضَّضَ
نامتُ على عَهرِها
واطمأنتُ

أَسْرَتْ لِمَرَاتِهَا أَنَّهُ مَاتَ
 مَا خَبَّرَتْ أَنَّ «وَحْشَ الْفَلَاحِ» ⁽¹²⁾ الصَّغِيرَ
 تَصِيدُهُ فَارِسٌ مِنْ صَعَالِكِ تِلْكَ الدِّيَارِ
 اشْتَرَاهُ الْفَرَحُ
 وَشَامَتُهُ تَسْتَفِيقُ عَلَى خَدِّهِ
 كُلَّ يَوْمٍ
 فَلَمَّا جَوَّاسِيْسُهَا أَبْلَغُوهَا
 أَرَادَتْ لَهُ الْمَوْتَ
 وَالْمَلِكِ الْحَبْشِيِّ
 وَجَارَاتِهَا الْعَاهِرَاتُ أُرْدَنَ لَهُ الْمَوْتَ
 حَنَّتْ عَلَيْهِ الَّتِي أَرْضَعْتَهُ «الْحَكِيمَةَ الْعَاقِلَةَ» ⁽¹³⁾
 عَلَّقَتْهُ عَلَى كَفِّهَا
 ثُمَّ طَارَتْ
 وَحَطَّتْ بِهِ فِي الْأَقَاصِي
 وَضَمَّتْهُ
 مِنْ ثَدْيِهَا اعْتَصَرَ الْحِكْمَةَ
 النَّارَ
 وَالشُّوقَ
 شَامَةٌ تُبْكِي عَلَيْهِ
 وَقِيلَ اخْتَفَى

ماتَ

نامتُ على حُلْمِها الحَبَشِيَّةُ

ثمَّ استضافتُ عساكرَها

ديرُ ياسينَ كانت وليمتَها

الخمرَ

والدمَّ

في البئرِ

والطرقاتِ العزيزةِ

بعدَ العشاءِ الذي قدَّدوا فيه لحمَ بَنِيها

وكانَ الحليفونَ مثلَ الغزاةِ

تقاتلَ كلُّهمُ حولهُ

واشتروهُ

وباعوهُ في السُّوقِ

تحتَ عيونِ المقيمينِ

والعابرينِ

قديداً

ولحماً

تعلَّبَ في المصنعِ البدويِّ

فدرَّ على السُّوقِ ربحاً جزيلاً

وكانَ أوَّانُ التجارةِ

موسمها الذهبيَّ
غيابُ ابنِ ذي يزنِ
يومَ راحَ يجرُّ لنا النيلَ
يحيي به الميتَ
ماتَ الفتى قبلَ سنِّ البلوغِ
وقيلَ: انتهى أمرُهُ
حيثُ لا يرجعُ الميتونَ
وماتتْ حبيتهُ في الدُّموعِ
ولما ترعرعَ شوهدَ في كَفْرِ قاسمِ⁽¹⁴⁾
ذاتَ صباحٍ
وفي خدِّه تنفياً شامهُ
ظنُّوا بأنَّهم قتلوه
فشوهدَ عندَ مخيمِ غزَّةِ
شوهدَ حولَ المدينةِ
يسري مع الليلِ
فاستنجدتْ بجيوشِ أبيها
تفتشُ عنه بغزاةِ هاشمِ
فوقَ ضفافِ القنالِ
وفي بُورِ سعيدِ
تلبسَ كلَّ الوجوه التي قاتلتُ

والعيونَ الشَّهيدَةَ
وراحَ يَمْرُكُما البرقِ تَحْتَ الشَّبَّابِيكِ
فوقَ السُّطُوحِ
ليرميَ المناشيرَ
والأغنياتِ
وفوقَ المآذِنِ أَطْلَقَ في صَوْتِهِ صَرَخَةَ النَّصْرِ:
اللهَ أَكْبَرُ
فَجَرَ قُنْبَلَةً
واستراحَ يصنعُ أُخْرَى
ويطلقُ:
اللهَ أَكْبَرُ
ويُطلقُ
يُطلقُ
يُطلقُ
يُطلقُ
عندَ النَّواصيبي
وبينَ الحَواكيرِ
في شاطئِ البَحْرِ
والبحرِ
كانوا يموتونَ بالنَّارِ

كانوا يَموتون رعباً
فكلُّ الذي في يديه سلاحٌ
ويَجرحُ
يقتلُ
حتى الخيامُ التي مزَّقتها الرياحُ
استحالت هضاباً مسنَّنةً راسياتٌ
وتَجرحُ
تسرِبُ منها
وشقَّ ممراته بينهم
أمه ما أبانت له وجهها
غير أنَّ السبيَّةَ كانت تراهُ
وتبسمُ في سرِّها
أنَّ رأته يُقاتلُ في زمنٍ واحدٍ
عندَ بوابتي سجنها
تحت أسوارِ عكا
وفوق القنال
ويبحثُ عنها
ويغرقُ في شامةٍ غزلتها البوادي
لوهلةً
وينهزمُ الحبشيُّ

يجر جرٌ خَيْبَتَهُ
ويصبُّ مرارَتَهُ
كرنفالاً عَصِيْباً
وَنَقْمَةً
وجرّافَةً تَقْلَعُ الشّامَةَ العَرَبِيَّةَ
تصبِحُ فِي سَاعَتَيْنِ مَطَاراً
ومقبرةً
حَرْبَةً
فوقَهَا قَامَ بَرَجٌ
ومستوطنةً
ويُحْتَجَزُ الفَارِسُ العَرَبِيُّ
بِسَجْنِ المَحْطَّةِ
ثمَّ يَسَاقُ إِلَى الجُفْرِ
والجُفْرُ مَطْحَنَةٌ
تَطْحَنُ الصَّخْرَ
والرَّمْلَ
ريحَ الجَنُوبِ
وتطحنُ فِيهَا ابنَ ذِي يَزَنَ
تَسْتَرِيحُ عَلَى مَوْتِهِ الحَبَشِيَّةُ
لَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ

يفجرُّ في الأنهرِ السَّبعةِ النيلَ
يروى دمشقَ

وترويه

تنهضُ أوراسُ في ساعديهِ

وفي منكبيهِ

ويَهوي على شطِّ دجلةٍ قصرُ الرحابِ

ويسقطُ تحتَ أظافره الأخطبوطُ

قتيلاً

ويا ويلَ شامةَ

مَنْ يفتديها

من الخيلِ

والليلِ

والنازلاتِ

وعمَّانُ مَنْ يفتديها

ومَنْ يفتدي أمَّهُ

أو يدلُّ الشريدَ على دربها

أو عليها

هوى

عذبوه

استحالتُ عليه الوعودُ

وأصبحَ ماءً
وناراً
تبخرَ
والنيلُ غاضٌ معَ الطَّميِ
حتى بَكَى بَرْدَى دُونَ دَمْعِ
فهذا هو الليلُ
يسقطُ فوقَ دَمَشقَ
وعمَّانُ ساقطَةٌ
منذُ كانتُ قصوراً
ومقصلَةً
موسماً للمجاعةِ
صنعاءُ
ذلُّ ابنِ ذي يزنِ
لا يموتُ ببغدادَ
رغمَ السَّكَّابِ
تأكلُ من لحمه
والعيونُ الغبيَّةُ
والخَلبيَّةُ
رغمَ الرطوبةِ في القاعِ
في القاعِ

في القاع
في القاع
كَنزُ سَليمانَ بَينَ يَدَيهِ
ولَكنَّهُ مَقعدٌ
عاجزٌ
أَن يُفكَّ يَدَيهِ عَن العَمَدِ الراسِخاتِ
عَلى صَدْرٍ مَن خَلَقَتْهُ
تَراهُ . . . وتَبكي
وليسَ يَراها
حَبيبَتُهُ أَصبَحَتُ في الحَوائِرِ
تَطحنُ بَينَ الحَوائِرِ . . . والصَّخِرِ
تَظفحُ عَيناهُ دَمعاً
دماً . . .
ليسَ يَبكي . . .
يَعضُ عَلى شَفتَيهِ
دماً . . .
ليسَ يَبكي . . .
وينزفُ
ينزفُ
ينزفُ

يُنزِفُ
يُعْمَى عَلَيْهِ
وَيَصْحُو
وَيُعْمَى عَلَيْهِ
وَيَصْحُو عَلَى الدَّمِّ
وَالْقَيْحِ
ثُوباً عَلَيْهِ
تَشَقَّقَ
صَارَ
اسْتَحَالَ عَلَى جِلْدِهِ
جِلْدَ حَوْتٍ
تَقُولُ ذَا
كَسَّرَ أَصْفَادَهُ
وَتَمَطَّى
فَحَطَّمْ نَافِذَةَ الْقَبْرِ
هَدَمَهُ
وَتَنَفَسَ
كَانَ هُنَا جَيْلٌ أَسْمُهُ «الْقَافُ»
كَانَتْ هُنَا
فِي الزَّمَانِ الْعَصِيبِ الْمَنَافِي

السُّجُونُ
وَكَانَ السَّمَّاسِرَةُ الْأَثْرِيَاءُ
يَنَامُونَ طَوْلَ النَّهَارِ
وَفِي اللَّيْلِ
يَزْنُونَ فِي الْحَبَشِيَّةِ
فِي ثَكْنَاتِ جُيُوشِ أَبِيهَا
عَلَى جَسَدِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَدَاسِ
وَعَنْ رَأْسِ سَيْفٍ يَقَامِرُ كُلَّ الْمُلُوكِ
الطَّوَاغِيَتُ
لَكِنَّ سَيْفًا هُنَا بَيْنَكُمْ
لَا يَمُوتُ
حَبِيبَتُهُ لَا تَمُوتُ
وَتَشْرَقُ فِيهِ
فِيوَلِدُ لِلْمَرَّةِ الْأَلْفِ
مَنْ صُلِبَ كُلُّ الْعَذَابَاتِ
وَالسَّجْنِ
وَالنَّفْيِ
وَالجُوعِ
وَالقَتْلِ
هَذَا أَبُوهُ

الذي ما تزوجَ فوقَ فراشِ السبيِّ

من حبشيَّة

يفتِّشُ بالدمِّ

والعظمِ

والموتِ

عن أمِّه

استنجدتُ بعساكرها الحبشيَّة

كان هناك كميناً

تلفَّت

أفرغَ طلقاته العشرَ

لم يتراجعُ

وظلَّ يفتِّشُ عن أمِّه

في الغنائمِ

كانت حبيبتُه فيه

لم يبكِ سيناَ لما رآها

وعانقها

ظلَّ فيها

توارى على رملها

صارَ رملاً

فما ميَّرتُه العيونُ الهجينةُ

قتلاً
ولكنه لا يموتُ
فُنيطرةً كانَ
أو ضُمَّتَيْنِ
وغزاةً
عمَّانَ
والنَّاصرةُ
ويسألُكمُ:
هل رأى أحدٌ أمه
لا تقولوا:
محالٌ
ولن يلتقيها
فسيفٌ بنٌ ذي يزنٍ فيكمُ
عاشقٌ
لا يموتُ
وزيفٌ
روايةٌ أعدائكمُ تلكَ
لا في يديه مقاليدُ سحرٍ
ولا سحرَ الجنِّ
أو سيفه . . سيفَ نوحِ المطلسمِ

أَوْ خَرَجُهُ يَحْتَوِي الْكَنْزَ

لَكِنَّهُ مِثْلَكُمْ

مَنْذُ يَوْمِينَ مَا ذَاقَ زَادًا

وَيُقْتَلُ

يُقْتَلُ

يُقْتَلُ

يُقْتَلُ

لَكِنَّهُ لَا يَمُوتُ

حَبِيبَتُهُ لَا تَمُوتُ

وَلَمْ يَدْخُلِ الْحَبَشِيُّ بِهَا

وَيَوْلِدُ سَيْفُ بْنُ ذِي يَزْنَ فِيكُمْ

عَبْرَ هَذِي الْعَصُورِ النَّبِيَّةِ

وَعَدَا الْخِلَاصَ لَكُمْ

وَلَهَا

وَلِأُمَّه .

(دمشق - 2/22 / 1972)

عنترة

عندما اغتيل عنترة من الخلف ، وفي الوقت الذي كان فيه يتصدى للغزاة عرف أن إصابته خطيرة ، ولأنه عرف ذلك ، لم يسقط عن جواده الأبحر ، بل ظل واقفاً ليغوّت على الأعداء فرصة تمزيق بقايا القبيلة التي افتداها دائماً بنفسه والتي رفض سادتها بالمقابل أن يعترفوا بأنه أحد أبنائها .

والحقيقة التي أغفلها الرواة دائماً في الحديث عن عنترة ، هي أنه ابن واحد من فقراء القبيلة اسمه شدّاد ، كما أن عبلة حبيته وابنة عمه ، هي ، أيضاً ، من الطبقة نفسها .

ولأن شدّاداً كان من فقراء القبيلة ، فقد أرغمه مالك دائماً على إنكار انتماء عنترة للقبيلة ، كما أرغم والد عبلة على التخلي عنها ، مرةً لتزويجها بأحد أثرياء القبيلة ، وأخرى لتسبي على أيدي الغزاة . .

لكنّ فارسنا الذي أحبّها ، قاتل دائماً من أجل قضية واحدة ، هي الحب . .
حُبُّ لعبلة ، وللقبيلة ، وكان ذلك وحده كافياً لتهديم سلطة مالك وطغمته ، وهذا يفسّر ما يحدث على أرض الوطن العربيّ خلال ما يزيدُ على نصفِ قرن .

*

واقف . . واقف

- أيُّها الراجعون -

والرمحُ ينمو جذوراً على أصولِ النخيلِ
السماءُ ذاتُ السماءِ
لكنَّما الميادينُ غيرُ الميادينِ
والدمُّ أرضٌ وأفقٌ
واقفٌ فيها الفارسُ الذي يغطِّي رجوعكم بالوقوفِ
الآنَ

ثابتٌ في الركابينِ
والمهرُ ثابتٌ
راكزاً رمحه تحتَ فخذِه
شامخُ الرأسِ
مثلما كانَ
أو يكونُ
انهدرَ الدَّمُ حولَ التماثيلِ
في المدنِ التي اجتاحتها الفرسُ، والرومُ
هذا دمٌ من كتابِ المزاوِلِ
والصَّوتِ
هذا دمي
أو فلسطينُ
والوطنُ العربيُّ
من البحرِ

للبحر
وقفته

فوق حدّ ختام التّساؤل
كلُّ الإجابات فرّت
وخلّته

- أيّها الراجعون -

قتيلاً

طعيناً

ورغم الهزائم من خلفه
واقف . . واقف

عترة

وجم الفرس

والروم

كان وحيداً

والغبار الذي تصاعد في الشرق

والغرب

كان غبار الهزيمة

تلو الهزيمة

مقروءة في الظهور التي أدبرت

مذ أطلت صدوراً

واقفاً ظلَّ

حتى داهمَ المجوسُ بقايا بني عبسٍ

على العرقوبِ

لكنَّكم لم تكونوا

رجعتُم

قبلَ أن يبدأَ الغزوُ

ردَّةَ العبدِ

ويلكمَ

لا تقولوا العبلَةَ زيفاً من الشَّعرِ

كلُّ الذي قاله الرواةُ لها

أنَّ عبدَ القبيلةِ

ما رافقَ الصعاليكَ

- زيفٌ

رافقَ الصعاليكَ

وهو في الجبهتينِ

واقفٌ . . واقفٌ

بين جيشينِ

واحدٌ زاحفٌ من الغربِ

والآخرُ المطاردُ في الشرقِ

أنتمُ

وَهُمْ

وهو في الحالتين طعينُ الرِّمَّاحِ التي تلتقي

تتحالفُ

أو تعقدُ الصلحَ سرّاً

وجهرّاً

مالكُ يغمسُ الأصابعَ بالدمِّ

ييصمُ تحتَ النصوصِ التي كُتبتْ في البلادِ البعيدةِ

هذا سوادُ القبيلةِ

والأرضُ

هذي ضفيرةُ عبلةِ

هل باعها مالكُ

ثم أفعى يَجوحُ

ويَنفي صكوكَ المبيعِ

يكذبُ بِصمتهِ؟

يشهدُ الدمُّ

تكذبُ الإذاعةُ

فالخربُ ما وقعتْ عبرَ قرنٍ

ولا التحمَ الجيشُ بالجيشِ

لكنَّما الحربُ كانتُ

وظلَّتْ على منكبي عترةِ

أورقت كل تلك الجراح
وأعطت ثمر الصدق
أطلعه الرمل في الوطن العربي
عييداً

يزودون عن شاطئيه الغزاة
وعن قلبه حلفاء الغزاة
ولكنهم يقتلون
ويعلن في الصحف المالكية
أن مؤامرة فشلت

- سوف يكشف عن دور بكين فيها
وتل أيب

وموسكو
وواشنطن أنهزمت
وأن انقساماً يسود صفوف العبيد
فقائدهم فر
نبحث عنه
فثمة مشقة بعد

لا تقلقوا
سوف يلقي مصير العبيد الخوارج
إن عاجلاً - سوف يقتل -

أَوْ آجَلًا
أَدْرَكُوا عَنْتَرَةَ
شَرَّشَ الرَّمْحُ
وَالسَّهْمُ فِي الْخَاصِرَةِ
قَبْضَةٌ حَوْلَ حَبْلِ اللَّجَامِ
وَمُقْتَرَنُ الْحَاجِبِينَ عَلَى مَقْلَتَيْنِ
الهُوَى فِيهِمَا صَوْرَتَانِ
لِعَبَلَةٍ وَاحِدَةٍ
لِلْقَبِيلَةِ الْآخَرِي
هِنَا مُتْتَهَى الْحَرْبِ
أَوْ بَدْوُهَا
عَادَةً تَبْدَأُ الْحَرْبُ أَوْ تَنْتَهِي عِنْدَهُ
أَوْ عَلَيْهِ
كَمَا فِي الْكِرَامَةِ
يَوْمَ اسْتَرَدَّ لَكُمْ بَعْضَهَا
وَتَصَدَّى لَهُمْ
وَاسْتَرَدَّ السِّيُوفَ
فَمَجَدَّهُ مَالِكٌ وَذُووَهُ
وَدَقُّوا لَهُ الطَّبْلَ
قَالَتْ إِذَاعَاتُهُمْ

- في غد
عرسُ عبلةَ عبسٍ
تُزَفُّ لفارسها
هل نسيتم؟
خُذَلْتُمْ
ألا أيُّها الراجعونَ عن الحربِ
لم تبدأ الحربُ
فالوطنُ احتُلَّ من دون حربٍ
وفارسنا كان في السِّجْنِ مَتَّهَمًا
بمراودة البندقيةِ
ذاتَ مساءٍ على الجبهةِ الميتةِ
رَجَّتْهُ النِّيابَةُ كي يُنكَرَ التَّهْمَةَ
ارتبكتُ
تحتَ وطأةِ إصرارهِ
أنَّهُ اجتازَ - في طَلقتينِ - المِلفاتِ
والليلِ
والسَّنواتِ
أصرَّ على أَنَّهُ مُشعلُ الحربِ
حيًّا
وميتًا

على مالك . . . والمجوسِ

فشقتَ سميَّةً⁽¹⁵⁾ أثوابها

أجهشتُ

- ذات ليلٍ أتاني يراودني

العبدُ

عبدٌ

بكتُ أمه

كذبوا ثديها . . فبكى

وبكتُ فوقه وحدها

حاكموه

وأبرقَ سادةُ عبسٍ

إلى هيئةِ الأممِ . . النبأُ المرُّ

- عبدُ القبيلةِ

لا ابنها

الآنَ في السَّجنِ

معذرةً

نحنُ لسنا دعاةَ حروبٍ

فمعذرةً أيُّها الرومُ والفرسُ معذرةً

واقفٌ . . واقفٌ

ذاك أيلولُ ينمو على صدره

شجراً
من البنادق
والدم
في كل واحدة ألف زند
وفي كل زند ترى قبضةً تحتوي الليل
والبنديقة

في الفوهات الترقب
ينحس الفرخ الآن فيها
يؤجل

حتى غد
سوف يساقط السادة الجاثمون
وتسقط مرثية العرس
حتى عواصمهم لن تكون
يقول لكم
واقف . . واقف

باب عصر
هو الآن يولد بين الزمانين
بين الخليفين
فوق الجبين المشع
المدمي

لظيَّ

بينَ نصرِ الغزاةِ

وذللَّ الهزيمةِ

وجهُ الذليلةِ وجهانِ

وجهٌ يخبئهُ الليلُ خلفَ المجوسِ

ووجهٌ يخبئهُ الذلُّ في المدنِ المستباحةِ

والنسوةِ الهارباتِ

على جثثِ الهارينِ

- إلى أينَ ؟

كلُّ البلادِ . . . بلادِي

المنافي

ومحتلةٌ أرضها

بقعةً بالجنودِ

وأخرى سبوا أهلها

بالدنانيرِ

والأجهزةِ

واقفٌ . . . واقفٌ

في مداها

قتيلاً على آسيا

وقتيلاً بأفريقيا

يَتَشَكَّلُ فِيهَا مَحِيطًا

مَحِيطًا

وَبِحَرًّا

فَبِحَرًّا

وَنَهْرًا

فَنَهْرًا

وَيَنْزِعُ الْمَهْرُ فِيهَا جِبَالًا

أَبَتْ أَنْ تَنْوَأَ بِحَمَلِ التَّوَارِيخِ

إِرْثِ التَّرَابِ الْحَزِينِ

عَلَى رَاحَتِي عِبْلَةَ أَنْكَبَ السُّقْرُ

سِرًّا

- تَغَزَّلَ فِيهَا -

- بَلَى -

قَالَ شِعْرًا

وَقَاتَلَ مِنْ أَجْلِهَا

مَا تَقَهَّقَرَ فِي حَضْرَةِ الْمَوْتِ

أَوْ رَاغَ مِنْ وَجْهِهِ

شَهِدَتْ إِبْلَهُمْ

وَالرُّعَاةُ

انتخوهُ

فصدَّ الغزاةَ عن الحيِّ ظهراً

وردَّ السبايا

أعادَ الغنائمَ للقومِ

أخلفتُمُ العهدَ

- يا أيُّها الكاذبونَ -

ابنُّها

رغمكُمُ

واقفٌ . . . واقفٌ

يتلقَى الحرابَ

على درعه انكسرتُ حدَّةُ الشَّمسِ

رفقاً بكلِّ الخيولِ التي تعبتُ في الهزائمِ

إن تطعموها

فلا تأكلوها

حرامٌ عليكمُ لحومُ الخيولِ

التي حملتكمُ

وسارتُ بكمُ عكسَ ما تبتغي

الخيولُ

إن أرغمتها فوارسُها السيرَ خلفاً

فلا تُعدموها

- انحروا أهلها
العيبُ فيهم -
ذروها لتزحم كلَّ الدروبِ
إلى حيثُ ينزرعُ الآن في جبهةِ الوطنِ العربيِّ
شهيدُ القبيلةِ
والحيُّ فيها
على عارها
واقفٌ . . واقفٌ
رغم أسيادها المدلجين إلى النومِ
والموتِ
عبرَ الحوارِ
مع الفاتحِ الهمجيِّ
على وقفةِ الفارسِ المتصدِّي له
أمس
واليومَ
حتى غدٍ
بالمقتالِ
أو الموتِ
بالموتِ يقتلُ موتاً أتى قبله الغزؤُ
يأكلُ وجهَ القبيلةِ

في مجلس الأمن
جمجمة صار وجهك يا وطني

يكسرها عبدُ حرب
ويدرسُ فيها المواقعُ
أو معطيات الظروف
احتمال التغيُّر في الأرضِ
والناس

يستنبطُ الآن سادتكَ القادمينَ
يرتبُّهم واحداً
واحداً

ويوزعُ أدوارهم في السنين التي انهزمتُ
قبل ميلادها
قبل أن تطأ القصرَ
أجيالُ أيلولَ
قبل انتفاضة عمَّانَ
والقدسِ

للمرة الألف . . والآخرةُ
واقف . . واقفُ
وأعاني زبيبة تنهلُ في ساعديه
مجبولةً بالأسى

والتُّرابِ
تَنْزُ على عَظْمِه
تتفصّد من تحت جلد
- تبيّس من لفحة الحرّ
والبرد -
شعراً
تنقش بالملح فوق السّواد
فكان البلاغ الذي تجهلون
عن الحرب
يوم مخاض زبيبة فيه
على طرف ما به نخلة
في المفازة
يوم استعاضت عن الماء
واستحلبت حصوة
ما تعرفها المطر الغائب الصيت
عن بيدها
فتدخرج
كان الحليب حزيناً
كما الدّم
فيضاً كما الدّم

كان شجاعاً كليلِ المخيمِ
في زمنِ الموتِ بالسُّلِ
والموتِ بالنارِ
والموتِ بالموتِ
شَبَّ على عُنُقِهَا
أَلْقَمَتُهُ
مَشَى من يديها
تَشَمَّمَ رَائِحَةً في المَضَارِبِ
واخترقتُ سَمْعَهُ صرخةً
تلكَ عِبلَةٌ
يفتضحها جندُ كسرى
تواطأ سادةُ عيسٍ معَ الفاتحينِ
وكانوا ينامونَ
حولَ الخبَاءِ
وفرسانها خلعوا عن بُطونِ القبيلةِ
مصتَّهمُ الرِّيحُ
والرَّمْلُ
حتى استوى مالِكُ
في الحدودِ التي رسمتها العِصِيُّ الغريبةُ
في ما يُسمَّى الدُّمَى العربيةُ

تلك التي دللتها القُصورُ
فباعَتْ قبيلتها للصقورِ
احتمتْ من فوارسها السُّمرَ بالفارسيِّ
حمتْ جندهُ يومَ فُضُّوا بكارةَ عبلةِ
عنترةُ يافعُ
يتصدى لهم وحدهُ
راجلاً
وعدياً
من البحرِ
للبحرِ
كلُّ الرِّوafd صبَّتْ بعيداً عن الجرحِ
والجرحُ في النيلِ
والرافدينِ
وفي بردى الجرحِ
نهرُ الشريعةِ
يا جرحَ عبلةِ
يا سيِّدَ الحزنِ
في غربَةِ الوطنِ المتهاكِ تحتَ السَّنابكِ
والمُتسرِّبِ كالماءِ
والريِّحِ

شيئاً

فشيئاً

إلى الموتِ

تحتَ العيونِ

الفتى

واقفٌ . . واقفٌ

في المجال الذي انفضَّ عنه السُّرأةُ

وحطَّ الكِماءُ على حَوْضِهِ

- آه

إنِّي ذكرتك في الزَّمنِ الفارسيِّ

وفي الزَّمنِ القيصريِّ

وفي الزَّمنِ المالكيِّ

فديتك يا عبلُ

لم أنتصر بعدُ

أدركُ أنكَ لن تخذليني

- انطُرِي

سوف يهوي عليكِ

يداً تهتكُ الليلَ

والعينُ في العينِ

لا خيلُ كسرى . . ولا الرُّومِ

أَوْ طَعْنَةُ الْمَالِكِيِّ
تَسُدُّ الطَّرِيقَ عَلَى الْعَاشِقَيْنِ
إِذَا التَّحَمَّ الصَّدْرُ بِالصَّدْرِ
يَنْبُضُ بَيْنَ الرَّفِيقَيْنِ قَلْبُ الْقَبِيلَةِ
تَوْلَدُ فِي الْمَدَنِ السَّاحِلِيَّةِ
وَالْمَدَنِ الْجَبَلِيَّةِ
وَالرِّيْفِ
عَيْنَاهُ
فِي كُلِّ عَيْنٍ صَبِيٌّ يُحِبُّ الصَّبِيَّةَ
يَكْتُبُ بِالنَّارِ شِعْرًا
يَغَازِلُ بِالبَنْدُوقِيَّةِ
يَا دَارَ عِبَلَةَ
كُلِّ الدِّيَارِ بَدُونِكَ يَا دَارَهَا
قَفْرَةٌ
وَمَنَافِي
وَبَيْتٌ بِهِ حَزْنُهُ سَاكِنٌ
وَعَقِيمٌ هُوَ الْحَزْنُ
إِنْ نَامَ
فِي شَرْفَةِ الْغَيْبِ
أَوْ إِنْ تَعَالَى

على قمم دمرتها القنابل

ذات زمان

بعمان

والقدس

فوق سفوح الجليل

بأبوابها

واقف . . واقف

ينحر الحزن في جرحه

والشهود مضوا

ما أعاروا الفتى ترسهم

فضلوا

أن يبعوك يا وطني للتتار

وأن يتخزن - يا وطني - للغبار

وللعرض في المهرجان المزور

والمتهاوي دليلاً

على ظل أقواس واشنطن

العاليات

على الطرق المتدفق في عرضها الدم

هذي مذابح زيتوننا

أو هو الزيت

والماءُ

صارا دماً

إذ تفجّر من جرحه

ذات أيلولَ

آه

محصلّة السّنوات التي انفرطتُ

حبّة

حبّة

بين أيدي رجال يخونون في الليلِ

ما عاهدوا في النهارِ عليه

عذارى القبيلةِ

أفراخها

آه

يا ضحكةً أجهضتها رؤوسُ القبيلةِ

حكّامها البائعون ترابِ بلادي

بما ليس يقبله باعةُ المومساتِ

بأسواقِ هونج كونجِ

يا وطني

صيروكَ

وأنت الذي أنتَ

قاتلتَ بالجانحينَ

وقاتلتَ بالمنهكينَ

وها أنتَ

وها أنتَ

والموتُ

أيلولُ

يا شهرنا المتجمّعَ عشرينَ قرناً

بعشرِ ليالٍ

على ما بها

واقفٌ .. واقفٌ

بعدها

والرّجالُ . . الرّجالُ . .

فلولُ

تُوزَعُ في صفحةِ الوفياتِ

وفي صفحةِ الغائبينَ

وفي لوحةِ علّقتُ في المخافرِ

يا هذه المذبحاتُ إلى أينَ ؟

تطلبُ تلكَ الأسمي التي علّقتُ

بعدَ أنْ علّقتُ في صدورِ البيوتِ التي صُودرتُ

والبيوتِ التي صادرتها

على جسدِ الطفلِ
ظلتُ حجارَتُها شاهداً
تنطقُ الأرضُ في الغدِ أحجارَها
فاطمئنوا
بأنَّ الشُّهُودَ يَعِيشُونَ
لو أُحرقَ الشَّعْرُ
أو أُحرقَتْ في الحواريِ الدفاترُ
لو أُغْلِقَتْ في بلاديِ المدارسُ
والجامعاتُ
أو انتصبتُ في البيادرِ كلِّ المشانقِ
واستُحضرتُ من ظلامِ العصورِ المقاصِلُ
أو لو أُبيدتُ ملايينُ عبسٍ
ستبقى على جسدِ الطفلِ أحجارُها
لتُنبتَ في الليلِ صباراً
لن نُسامِحُ
لكنَّها في النهارِ الوفيِّ لكلِّ العيونِ التي أُطفئتُ
ستقاتلُ
أبشراً ووطنَ البائسينَ
هي الآنَ طعمٌ على شفتيهِ
وجمرٌ توقَّدَ في محجريهِ

تهبُّ الرِّياحُ
تضيقُ المساحةُ من حوله

فيه

يخنتقُ الدَّمعُ في حلقة
تشرئبُ العروقُ الذبيحةُ

- هل يتألم؟

- كلا

- بلى

كم هو الألمُ العربيُّ كبيرٌ
إذا اتسعَ الجرحُ

لكنه لا يبينُ

سوى رايةٍ طرزتها الحرائقُ
تخفقُ

حتى لو النارُ جارتُ عليها

فلا تتلاشى

كما الوطنُ العربيُّ الذي احترقتُ فيه أطرافُهُ

والحواشي

ولكنه ما ترنحَ

أو برهته - إن أردتم -

تكرَّرَ فيها الحريقُ على مدِّ دهرٍ

أَطَلَّتْ مُكَرَّرَةً فِيهِ
كَمْ مَرَّةً
لَا تُعَدُّ عَلَى الْفَارِسِ الْمَوْقِعَاتُ
تَعَدُّ الَّتِي خَلَّفَ الْقَوْمَ فِيهَا
وَقَرَّ
وْفَارِسٌ عُبَسَ لَهَا
وَاقِفٌ . . وَاقِفٌ
حَدَّهُ قَلْبِهَا
قَمَرٌ
صَارَ أَبْعَدَ عَنِ نَظَرِيهِ
وَاقْرَبَ مِنْ قَلْبِهِ
ظِلًّا
أَسْخَنَ مِنْ كُلِّ مَا يَنْزِفُ الْجَرْحُ
أَكْثَرَ حُزْنًا مِنَ الْحُزَنِ
مَا زَالَ
- يَا وَجْهَ عِبِلَةَ لَمْ نَفْتَرِقْ
خَبْرِي الْحَيِّ أَنِّي هُنَا
أَوْ هُنَاكَ
فَحَيْثُ تَكُونِينَ
إِنِّي أَكُونُ

سواءً
أكانت عيونك في النجمتين
أو الأسر
أو في القذائف
والصحف الفارسية
والمالكية
والقيصرية
إعلان أرض مفرزة في المزد المكرّر
أو كنت في خطر الموت
في عظمتين
وجمجمة
ها هنا . . واقف . . واقف
عترة
شرش الرّمح
والسهم في الخاصرة .

(1972 /4 /2)

هلال

عندما تغرّبت هلالٌ عن ديارها ، لم تحطَّ رحالها في تونس كما يروى ،
ولكنّها واصلت النغربية ، حيث عادت إلى النقطة التي بدأت منها كما تقول
بذلك نظرية كروية الأرض .

وهلال تقف الآن على أبواب مدينتها ، بينما دخل ذياب بن غانم إليها في
مهمة استطلاعية ، تحريضية ، وتنظيمية .

والحقيقة ، أنّ بني هلال في تغريبتهم هذه لم يكونوا غزاة أو مخربين كما
يروى حتى الآن عنهم ، ذلك أنّهم مثّلوا دائماً خميرة الإنتفاضة الشعبية في
كل المناطق التي اجتازوها ، ولهذا نستطيع أن نرى غداً جيوشَ هلال أقوى ،
وأكبر ، وأكثرُ عدَّةً وعدداً في المعركة الأخيرة الفاصلة .

*

- وصلنا . .

- وكيف المدينة؟

- سجنٌ وسوقٌ عبيد ، ومزرعةٌ يبست

مصنعٌ خاملٌ

مدفنٌ

ساحةٌ للوطاويط

غاب الضبّاع

وبحرُ دمٍ
جبلُ خانعٍ
ومراعٍ حرامٍ على أهلها . .
ومشاعٍ على الغرباءِ
وبيتُ الدعارةِ بوابةِ الداخلينَ إليها . .
وبوابةِ الخارجينَ عليها
إلى المقصلاتِ
المشانقُ هذي المدينةُ
والعقمُ
والجوعُ
والشبعُ
الموتُ للآخرينَ
وأبارُ نفظِ
ومئذنةٌ هدمتها القنابلُ في الأشرفيةِ (16)
برجٌ وأجراسهُ خشبٌ
لا تدقُّ القيامةَ
أوبئةٌ في مقابلِ عافيةٍ تتحصنُ في سقْفها
عتمةٌ
ترَفٌ
وزمانٌ تسيبُ

أغرقَ سعدى

حبيبتنا

طرحوها على دمها

تتناوبُ كلُّ الثعالبِ

- مَنْ يحكمونَ عليها؟

- السلاطينُ

تجارها المدمنونَ على التبغِ

والخمرِ

والميسرِ

والقتلِ

والتسلياتِ

الأغاني الذليلةِ

والأمسياتِ الهزيلةِ

والكلماتِ الكثيرةِ

شرطيها

والأدلاءُ

والمرتشونَ

اللصوصُ الكبارُ

السماسرةُ المترفونَ

الزناةُ

- وأهلُ المدينةِ . . أخبارُهُم كيفَ؟

- يا ويلنا . . هل صممتنا؟ رحلنا

وعدنا إليهمُ

همُ الفقراءُ . . الخاليا

الجياعُ

الفلايحُ

عُمّالها المتعبونَ

الخياري

المضاعونَ

والميتونَ على ساحها الأمسَ واليومَ

والسجناءُ العبيدُ

الجواري

الصعاليكُ

والأرملاتُ

الثواكلُ

أيتامها

نجمها الذهبيُّ على البيرقِ القرمزيِّ الذي أبدعتهُ حبيبتنا

ثمَّ نخبىءُ تحتَ الوسائدِ في الزمنِ البربريِّ

- أتذكرُ في الزمنِ البربريِّ؟

- بلى . . يومَ سعدي

تخاطفها السُّودُ والزرَقُ في الضفَّتَيْنِ

على حَرَبَتَيْنِ

- بلى

لا تتابعُ

- كفى . .

كنتُ والقدسُ نسهرُ في حيِّ نزالٍ⁽¹⁷⁾

سعدى تصبُّ لنا الشاي في الغورِ

فوق القُرْنَطِ

كنا وعمَّانَ نعبِرُ

فاجأنا في ذُرَى القِمَتَيْنِ النَّبَاحُ

كمنَّا

انتظرنا

تراجعَ عنَّا الدليلُ . .

توقَّفَ

مدَّ يداً للقصورِ

وأخرى تلقَّفها القبرُ ماتتُ عليه

تَجحُفُ أيلولُ بالحرسِ البدويِّ

صمَدنا

- وأذكرُ

- ماذا؟

- وسعدى تساقُ إلى كهفِ ناعورٍ⁽¹⁸⁾

تشهدُ كيفُ دُبِحنا . . وتذبحُ

كيفُ أهالوا علينا التُّرابَ

على شطِّ يافا

وغزّة

- كيفَ خرجنا عليهم من الكهفِ

بعدَ سُبُاتِ القرونِ

وكيفَ انتفضنا

- على قمّةِ الجبلِ

الموتُ كانَ نهاراً

وليلاً

وناراً

وماءً

فطفلُ المدينةِ

والبنتُ

والشيخُ

ماتوا من العطشِ

النَّارِ

والجوعِ

والحرسُ الملكيُّ الذي علَّقَ التاجَ

ألقى بنجمة داوودَ فوقَ المدينةِ

باب المشافي

وحاصرَ سعدى

وسيارةَ الماءِ

صادرَ منها الدّواءَ

فماتَ الكثيرونَ

- أذكرُ

ظلّوا زماناً يئنّونَ تحتَ الخرائبِ

والموتُ يُمطرُ عمّانَ فوسفورَ

والقصرُ يفرشُ صيوانهُ

والسمّاطَ

ويضحكُ نيرونُ

مازتهُ من نُخاعِ الصّغارِ

وخمرتهُ دمههمُ

والكؤوسُ الجماجمُ كانت تدورُ على الشّارينَ

- كفى يا ابنَ غانمِ

ورافقُ مع الفجرِ آخرَ نجمِ

وسلّمَ على كلِّ تلكِ الخلايا

إلى الخيلِ

واستطلعِ الطُّرُقَ

الليلَ
والحرسَ الهمجىَّ
وعُدَّتُهُ
والقصورَ
الحصونَ
وأبوابها
سجنَ سعدى
الجواسيسَ
عرَّفَ علينا جِيعَ المدينةِ
إنَّا لهمُ سنْدٌ
منهمُ نستمدُّ العزيمةَ
أودى بنا زمنٌ للجرادِ حليفٌ
أتانا
رعى أرضنا
باضَ فيها . . . تكاثرَ
ماتَ الصغارُ من الجوعِ
والنارِ
والعطشِ الجاهليِّ
وماتَ الكبارُ حزانى عليهم
وماتتْ نياقُ القبيلةِ دونَ الينابيعِ

جرت علينا الكوليرا
تناقصت الخيلُ
ألقتُ فوارسها تحتها
في المراعي الجديباتِ
شدَّ الرِّجالُ الرِّماحَ
وشدُّوا الرِّحالَ عن القدسِ
ولوا تجاهَ المدائنِ بحثاً عن الماءِ
والكلاً الخصبِ
والعرسِ
ما غادروا الأرضَ لكنَّهم أودعوها العيونَ
القلوبَ
فقاتلهم في الدُّروبِ الطُّغاةُ
وحالفهم في الدُّروبِ الرِّجالُ
الجنودُ
النساءُ
الذين أنتموا للجِيعِ
تهدَّمتِ المدنُ المترفاتُ
خميرتها نحنُ كنا
الصِّبَايا تهافتنَ
زغردنَ للقادمينَ من الشرقِ

والعابرين إلى الغرب
من عمرّوا في الرّحيل الصّحارى
بيوتاً من الحجر الصّلد
يسكنها الحبُّ
والفقراءُ
وسعدى
الصغارُ
اليتامى
وزگردن للقمح يفرّدُ صدرًا تذهب شوقاً
تقصّف للمنجلِ العربيّ
وزگردن للمدخّات
العرائس . . تنشرُ في الأفق دختها
والبخارَ
وعوداً بأنّ الفُصولَ أكتملنَ
شتاءً
ربيعاً
خريفاً
وصيفاً
وأنّ النّهار فرارٌ سيبقى بأعين من يعشقونَ
وأنّ الليالي ارتحلنَ

وغدونَ تعاليلَ
يروى الربَّابُ
وشاعرهُ العبقريُّ حكايتها رقصَةً
دبكةً

وقعَ خيلِ الخلاصِ
أنظروا أيُّها الفقراءُ الخلاصَ
وهاتوا العصيَّ
الفؤوسَ
المناجلَ

هاتوا البواريدَ⁽¹⁹⁾

لمُوا الحجارةَ

وابنوا المتاريسَ

هذا الزَّمانُ به تُسحقونَ

ولا بدَّ من سحِقِهِم

يا ابنِ غانمٍ

وهذا بيانُ الهالكيِّ

باسمِ الجموعِ الفقيرةِ

باسمِ الملايينِ

حرَّضَ بهِ

اكتبهُ فوقَ جبينكَ

فوقَ الحِجَارَةِ بِالدِّمِّ
بِشْرٍ بِهِ العُمِّيَّ
وَاسْكُبْهُ ضَوْءًا بِكُلِّ زَفَاقٍ بِعَمَّانَ
وَالْقُدْسِ
فِي العُورِ
فوقَ السُّفُوحِ الخَضِيْبَةِ
خَمْرٌ مَنَاحَ المَدِيْنَةِ
أَعْلَنُهُ بِالبِنْدِيقِيَّةِ
أَنَا نَقَاتُلُ
إِنْ يَأْسِرُونَكَ ففِي الأَسْرِ قَاتِلُ
وَقَاتِلُ
وَقَاتِلُ
وَقَاتِلُ
كَمَا كُنْتَ فِي المَوْقِعَاتِ الخَوَالِي
بِوَادِ الحِوَارِثِ
وَالجُوزِ
وَالْقَسْطَلِ الدِّمُومِيِّ
بِمَنْطَرِ غَزَّةِ (20)
فوقَ تَلَالِ الشَّمَالِ
بِإِيْدُونِ (21)

عجلون⁽²²⁾

قاتلُ

فتغريبهُ القومِ عهدٌ ووعدٌ

بأنَّ المدائنَ تصبحُ غيرَ المدائنِ

صارتُ

فحريرةٌ وجهُنَا

وجهُهَا

ليسَ فيها قصورٌ

ولا مومساتُ

ولا الأمراءُ يعيشونَ فيها على الفقراءِ

انطلقِ يا ابنَ غانمٍ

فهذي عهدٌ هلالٍ

فوارسها

دُمنا فوقَها رايةُ الغرباءِ

الجموعِ

لها نحنُ حربٌ على الموتِ

لا نعرفُ السِّلْمَ إلاَّ على جثثِ الطامعينِ الغُزاةِ

وفوقَ جماعِمِهِمْ

نجهلُ السيرَ للخلفِ

نمضي أماماً

أماماً

أماماً

أماماً

على أفقنا الأحمر العَصْرُ
والبحرُ

رفُّ حمامٍ يطيرُ ويهدلُ
- لآئي أجهل هذي المدينة

أجهلُ فيها الشَّوَارِعَ

أجهلُ أسواقها

والحواري

والمقاهي

الملاهي

صناديقها الدَّارِجاتِ اللوامعَ

واللافتاتِ

والنيونَ

وأجهلُ موطنَ رجلي

خذوا بيديَّ

ادفعوا لي رغيفاً

وأسمعكم بعضَ شعري

- ومن أنتَ؟

- إني . . أنا العاشقُ الشَّمْسَ سَعْدَى

- مدينتنا ارتفعتُ فوقَ هذي الجبالِ
وأسماؤها بطلُ راحلٌ في شعابِ الصُّخُورِ
وآخرُها جَرَّ عنها

ولكنَّها فيه

وهو تجذَّرَ فيها

- برغمِ القُصورِ التي قد تراها هنا
أو هناكَ

ورغمِ المخافرِ

والعسكرِ الجائمينَ عليها

يسمونها القدسَ

عمَّانَ

لا فرقَ

واحدةً في اثنتينِ

وثنتانِ في واحدةً

على كتفِها تجلَّطَ دمُ الصُّغارِ

فأطلعتِ الأرضُ فيها القَتيلَ المقاتلَ

- معذرةً

والخلايا؟

- مُسلَّحةً في ثنايا الخرائبِ

والموعدُ الفجرُ

- غنّوا معي

أنتمُ الجوقَةُ الأَصْلُ

مَنْ فَتَشَتْ عَنْهُ عِبْرَ الْقُرُونِ الْفَلَاسِفَةُ

الْحُكَمَاءُ

فتَاهُوا

وما تَوَّأ بِحَسْرَتِهِمْ

جُنْتُ . . هذي يدي تتلمَّسُ جِبْهَاتِكُمْ

تتدفأُ حولَ مواقدِكُمْ

أشعلُوا النارَ

بردُ مدينتِكُمْ والبيوتُ

الرطوبةُ تحتَ الحَصِيرِ

وفي عَظْمِكُمْ

اخْلَعُوهَا

أنا بينكم أحرُّوني لأطفالِكُمْ

مرحباً . .

أحرُّوني

أنا معدني الجمرُ

إنِّي احترقتُ زماناً طويلاً

وإنْ تحرُّوني

فلنْ أَتَفَحَّمْ
أوْ أترَمِّدَ
لا تُطْفِئُونِي
أموتُ لو انطَفَأَتْ نَجْمَتِي
- أوْ كَسْتُ ابنَ غانِمٍ ؟
فَهَذَا غناءُ الأَحَبَّةِ
- هذا أنا بَيْنَكُمْ يا رِفاقِي
احْمِلُونِي
ارْتَدُّونِي
أنا أَنتمُ الْمُتَعَبُونَ
ولكنِّي جُبْتُ أَكْثَرَ حَتَّى أَتَيْتُ إِليْكُمْ
وأَحَبِّتُكُمْ قَبْلُ
عانَقْتُمْ مِنْذُ بَدْءِ الخَلِيقَةِ
كُنْتُمْ يَدِي فَوْقَ سَيْفِي
وأَنْتُمْ هُنا فِي المَدِينَةِ وَعَدِي
وسَعْدِي
ووعِدُ المَدِينَةِ
أصحابِها - بِاسْمِكُمْ - قاتِلُوا المَوْتَ
هذِي المَلائِينُ خَلْفَ التَّلالِ
جِيوشُ هلالِ

على رأسها البطلُ العربيُّ سلامُهُ
أبشِرُ أبا زيدُ
فهذي جموعُ المدينةِ تخرجُ من موتِها
والحجارةُ

تلبسُ درعي
وتمسكُ بالسيفِ
تعتقلُ السّمهريَّ
تموجُ المدينةُ بالطّالعينِ عليها
على طرقاتِ القُصورِ
تجمَعُ كلُّ السّلاطينِ
ناحُوا . .

على دمعهم علّقوها المراثي
استعدُّوا لنا

ارتعشتُ خيلهم
أيقنوا موتهم
كلُّ هذا الصّليلِ الذي تسمعونَ
احتكاكُ الرّماحِ من الرّيحِ
والرُّعبِ
هذا الصّهيلُ شهيقُ احتضارِ السّلاطينِ
خيلِ السّلاطينِ، أيضاً

وهذي الرُّعودُ أنهيأرُ جدارَ منَ الخوفِ فوقَ جدارٍ
- أنا في الجموعِ . . . أنا حتفُهُمُ

ويلهمُ

جئتُ فاطلقُ خيولَ هلالٍ بفرسانها

والسُّيوفَ

الرِّمَّاحَ

البنادقَ

قف . .

وانتظرُ برهةً

وتقدّمَ

ففتحنا لكم بابها

إنطلقُ نحونا

ساحُ وحداتها⁽²³⁾ قلبنا

فانطلقُ نحونا

النَّصرُ فينا

وبابُ الخليلِ⁽²⁴⁾

ودوَّارُ مكسيمِ⁽²⁵⁾

وجهُ المخيمِ

إنَّا لبسناه فوقَ جراحِ السَّينِ

احتدَمنا

وَآخِرُ مَعْرَكَةٍ هَاهُنَا
 بَعْدَهَا الْبَحْرُ
 وَالزَّمَنُ الْقُرْحِيُّ
 - إِلَيْهَا فَفِيهَا ابْنُ غَانِمٍ
 - يَنَادِي سَلَامَةً فِي الْأَسْرِ
 - أَسْمَعُ صَوْتَ رَفِيقِي
 - وَسَعْدَى
 - فَيَا أَيُّهَا الْحَاكِمُونَ مَدِينَةَ أَهْلِي
 - احذَرُونِي
 سَلَامَةٌ يَزْحَفُ
 فُكَّوهُ أَوْ فَاقْتَلُوهُ
 فَكُلُّ الْجُمُوعِ بِسَاحَاتِهَا ابْنُ غَانِمٍ
 - لَا تَحْسَبُوا أَنَّنَا نَنْشِي
 كَيْ تَفْكُوا الرَّهَائِنَ فِي الْجَفْرِ⁽²⁶⁾
 إِنَّا زَحَفْنَا
 فَكُونُوا لَهَا مِثْلَمَا أَمَسَ كُنْتُمْ عَلَي رِبْعِنَا فِي مَخِيْمٍ إِرْبَدَ
 لا . .
 لا تَخَافُوا
 فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا لَكُمْ
 إِنَّ تَمُوتُوا . . تَمُوتُوا

ولكننا إن دفعنا الجيوشَ إلى الحربِ
تولد فينا الجيوشُ البديلةُ
خلفَ الجيوشِ ميادينها الشاسعاتِ
ولكنكم خلفكم حائطُ القصرِ
والبحرُ

أين المفرُّ لكم؟

ليس بين الفوارسِ معتقلٌ للأسيرِ
وقيدٌ

فكلُّ الذينَ على لحمهم دمُ أطفالنا
الموتُ حقُّ لهم

أو عليهم

هوَ الحقدُ من يجهلُ الحقدَ
يجهلُ كيفَ يحبُّ

- إليها حرثوها مع الحارثينَ

أقبلوها على القصرِ

أمثلةً يتعلمُ منها الصغارُ غداً

- كانَ فيها الزيناتي

السلطينُ

كانَ الجياعُ

فصارتُ جحيماً

وَصَارَتْ فِرَادَيْسَ بَعْدُ
- ارفعُوا العلمَ العربيَّ المطرَّزَ بالنَّجمِ
خَلُّوهُ يَخْفِقُ فَوْقَ الْمَدِينَةِ
- هَذَا زَمَانُ الْمَعَارِكِ
يَتَنَصَّرُ الْفُقَرَاءُ الْجِيَاعُ عَلَى الْمُتَخَمِّنِ
عَلَى مَنْ بَنُوا صَدْرَ حَيْفَا مَجْنَزِرَةً

تُكْنَتَات

عَلَى جِبْهَةِ الضَّفَّتَيْنِ

وَسَيْنَاءَ

جَوْلَانَ

عَمَّانَ

هَذَا زَمَانُ الْمَلَائِينِ

فِيهِ لِأَطْفَالِهِمْ يَكْتُبُونَ الْمَلَا حِمَّ

يَبْنُونَ فَوْقَ الرُّكَّامِ الْقَلَاعَ

الْمَصَانِعَ

كِرْمًا

وَأَغْنِيَةً

- عَاشَ فِينَا السَّلَامُ

وَعَاشَتْ جُمُوعُ الَّذِينَ اسْتَفَاقُوا

اسْتَفَاقَتْ هَلَالَ عَلَى صَوْتِهِمْ

يُعلنونَ انتصارَ المناجِلِ والمطرقاتِ
انتصارَ السِّلَاحِ على مَنْ غَزَوْا بالسِّلَاحِ القُرَى والمدائنَ
يا عينَ حوضٍ⁽²⁷⁾
ويا سيلةَ الظهرِ⁽²⁸⁾
يا بئرَ زيتٍ⁽²⁹⁾
يا كفرَ سومٍ⁽³⁰⁾
أحبُّكَ سعدى
أحْضِنِي . . خُدِينِي . .
اقتربنا

- ارفعوا العلمَ العربيَّ المطرَّزَ بالنَّجمِ
غُزُوهُ فُوقَ رَمادِ القُصورِ
وخلَّوهُ بالنَّصرِ
بالعزِّ
يرفلُ

- هوَ الوطنُ العربيُّ التَّحْمِنُا عليهِ
وثيقَةُ وَحدتهِ دمنَا هادرٌ
في المحيطاتِ
في الأنهرِ الدَّافِقاتِ
الينابيعِ

حتَّى تحرَّرَ من ورقِ الخارطاتِ القديمةِ

قَامَ عَلَى قَلْبِهِ النَّصْبُ
يَشْمَخُ
مَحْفُورَةٌ فَوْقَ جُدْرَانِهِ
لَوْحَةٌ لِلشَّهِيدِ
طُفُولَتُهُ
وَالْجُمُوعُ الَّتِي أُيْقِظَتْهُ
وَمَنْقُوشَةٌ سِيرَةُ الرَّاحِلِ الْمَتَائِي
طَوَالَ سَنِينَ الْمَجَاعَةِ
وَالنَّفْيِ
وَالْمَوْتِ
عَبْرَ الْعَوَاصِمِ
صُورَتُهُ وَهُوَ يَحْبُو عَلَى وَجْهِهِ
تَحْتَ خَيْلِظِ الْعَدُوِّ
وَخَيْلِ الدُّمَى
وَهُوَ يَكْبُرُ خَلْفَ حَدِيدِ السُّجُونِ
وَكَأَنَّ انْتِفَاضَاتِهِ
الْهَزَائِمِ
وَالصَّبْرِ
مَحْفُورَةٌ فَوْقَ أَحْجَارِهِ زَهْرَةٌ
مِنْ رِبْعٍ تَجَدَّدَ فِيهَا

وصورةُ كلِّ السِّنِّينِ العجافِ التي غابَ فيها

- انتظرناهُ قبلَ الولادةِ

نحنُ انتظرناهُ

والحربةُ

النَّارُ

والمنجلُ

العرقُ

المطرُ

الدمُ

والرملُ

والحقلُ

والبيدرُ

الزيتُ

والسنديانُ

الصخورُ

الجبالُ

السهولُ

الصَّحارى

النخيلُ

البحارُ

الشَّوَاطِئُ
مَحْفُورَةٌ فَوْقَهُ السُّنُنُ الرَّأْسِيَّاتُ
المَوَانِيُ
وَالسُّنُنُ الْمُبْحَرَاتُ
وَيَشْمَخُ فِي عَرَفِهِ شَارَةً
غَصْنُ زَيْتُونَةٍ أَيْنَعَتْ بَعْدَ قَحْطِ
وَفِي صَدْرِهِ طَاقَةٌ قَشَشَتْهَا الْحَمَامَةُ سَعْدِي
وَيَا وَطَنِي الْعَرَبِيَّ
هُوَ الصَّدَقُ أَنَا تَعْبَنَا
وَلَكِنَّا مَا وَقَفْنَا
هُوَ الصَّدَقُ كَانَ السُّقُوطُ نَصِيبَ الَّذِينَ اسْتَرَا حُوا
عَلَى تَضْحِيَاتِ الشَّهِيدِ
وَفِي ظِلِّ خُوْذَةِ حَائِمٍ
وَالْبَدْوِيِّ الْخَلِيعِ
و«سَامًا»
فَأَسْقَطَهُمْ
قَامَ
أَنْهَضَ حَتَّى الْمَوَاتِ الَّذِي كَانَ فِيْنَا
وَإِذْ عَشْتِ يَا وَطَنِي
نَحْنُ عَشْنَا

توحَّدتَ فينا
تحرَّرتَ
- هذا هو الوطنُ العربيُّ
انتصرنا
احترقنا مع الخارطاتِ القديمةِ
فيه حرقنا الهويَّاتِ
صارتْ هويَّتنا المجدُ
للثائرِ العربيِّ .

(دمشق - 24 / 2 / 1972)

شهرزاد في الليلة الثانية بعد الألف

عندما اقتحمت شهرزاد قصر شهريار، تصوّر الكثيرون أنّها أرادت أن تفتدي بنات جنسها فحسب، لكنّ الحقيقة - التي لم تعد مجهولة حتى من بقايا شرطة السلطان في بلادنا وفي البلاد الأخرى - تؤكّد أنّ شهرزاد كانت تقود تنظيمًا سرّيًا من داخل القصر والسجن في آن، وما لبث أن انتشرت عبر الليالي الألف خلية إلى جانب خلية، حتى كانت الليلة الأولى بعد الألف حيث انتفضت الجماهير بقيادة حزبها المتمرس فأسقطت شهريار، واجتازت إلى الليلة الثانية ليلة الفرح والمستقبل والإعداد للحرب الطويلة الأخرى على أرض بعيدة ترزح تحت وطأة شهريار آخر.

*

- . . . والآن تحت جفوننا

يا شهرزادُ

تمدّدي

وارْخِي ذراعِيكِ

استريحي

في شرايين الحديد الحيّ

والدّم

والنُّحاسِ
وسكبةِ الفولاذِ
في الزَّرْقَاءِ
والثَّوبِ الذي خاطتهُ في زمنِ العَدَابِ
أراملُ الوطنِ المدجَّنِ - في الليالي الألفِ - دهرًا
بالحرَّابِ
وبالبنادقِ
والكراريسِ
الإذاعاتِ
الدنانيرِ
السُّجونِ
الخوفِ
والنابالمِ
والأعدارِ
والتَّصفيقِ
والموتِ القديمِ
تَمَدَّدي
لُمِّي نقابكِ فوقَ طفلكِ
واكشفي للشمسِ وجهي
وارسلي تنهيدةَ الصُّعداءِ

فوقَ الجرمقِ⁽³¹⁾ المتسامقِ الفرَّحانِ
فوقَ المدِّ

والدمعِ الذي تعبتُ خطاهُ
على دروبِ اللَّيلةِ الأولى
إنَّها طالتُ وصارتُ ألفَ ليلةٍ
- ها نحنُ نقرأُ في جبينكِ
أو نغني

ماتَ يا عمَّانُ . . . غولُ اللَّيلِ
- وارتحلَ المساءُ -

ولم يَقمْ
بالرَّغمِ من صوتِ الصَّبَّاحِ
وضوئهِ
ما كان في التَّابوتِ مَقْتولاً
ولكن في صياحِ الدِّيكِ
فوق سَنابِلِ الحَاراتِ
كان الدِّيكُ جسرَ الرَّاحِلينِ
إلى عُرُوقِ الأرضِ
شَبَّ الحزنُ في شِبابَةِ الرَّاعيِ
وفي الأرغولِ
في وترِ الرَّبابِ

وزغرداتِ النبعِ
في مُقلِ الصَّبَايا
والمطرُ

- . . . والآنَ دورُ النَّابتينِ على أَكْفِ الصَّخرِ

والرَّمَلِ المحرَّرِ
والذُّرَى

يروونَ عنكِ
وعن عذابِكِ
وانتصارِكِ
شهرزادُ

على مذابحِ شهريارُ

- الآنَ تنهضُ من دَهايزِ القُصورِ رؤوسُهِنَّ

على رقابِ الرَّاقصينِ . . .

- تمرَّغِي في دبكةِ الرُّعيانِ

في وقعِ المطارقِ فوقِ آنيةِ النُّحاسِ

- وفي عيونِي الضَّوءُ

ردَّ الليلُ عن شَطِّ النَّهارِ

وعن بحارِ ما رأتها الشمسُ

- منذُ اللَّيلةِ الأولى

وُلِدْتُ

كَبُرْتُ

مَتُّ

طَلَعْتُ فِي عَمَّانَ

ثُمَّ قُتِلْتُ

- لَوْ يَدْرُونَ -

- إِنِّي أَسْتَطِيعُ رِوَايَةَ الْأَحْدَاثِ

حَتَّى بِالْقَمَمِ الْمَسْدُودِ - قَبْلَ النَّوْمِ -

بِالْخَشْبِ الْمَزِيَّتِ

وَالرَّصَاصِ

وَبِالْحِجَارَةِ

وَالهَوَاءِ

- تَضَاجَعُوا

وَتَاكَلُوا

وَتَبَادَلُوا زَوْجَاتِهِمْ

رَقَّصُوا

وَنَامُوا

- وَيَلَهُمْ

أَثْمُوا

فَظَنُّوا أَنَّنَا عَمِيٌّ

وَأَنَا أَغْيَاءٌ

- لَوَّحْتُ كَفًّا لثَانِيَةً

تَعَدُّ جُنُودَهُمْ

تَتَفَحَّصُ الْأَبْوَابَ

وَالْأَقْفَالَ

وَالدَّرَبَ الَّذِي يُفْضِي إِلَيْكَ

تَتَاءَبَ الْحَرْسُ الَّذِي فِي الْقَصْرِ

فَوْقَ السُّورِ

فِي الرُّدْهَاتِ

وَالشَّرَفَاتِ

وَالْأَبْرَاجِ

لَمْ يَمْنَعَكَ أَنْ تُتْلِقَنِي إِلَيَّْ بِكَلِمَتَيْنِ

- خَطِيرَتَيْنِ عَلَى الْمَوْلَى -

بَيْنَ وَاحِدَةٍ وَأُخْرَى مِنْ عِبَارَاتِ الْحِكَايَةِ

- كَانَ يَا مَا كَانَ -

يَا مَوْلَايَ . . يَا مَلِكِي السَّعِيدِ

- ثَلَاثَةٌ

وَتَلَاثَةٌ

وَتَلَاثَةٌ

هَرَمٌ يَقُومُ

وَهَكَذَا الْفُقَرَاءُ يَنْتَفِضُونَ

- يا مولاي أدركنا الصِّباحُ

- ويُطبعُ المنشورُ

- يرحلُ من يدي يا قوتَ

- سرياً -

فتلقفه عيونُ السَّاهرينَ

وَتومئُ الأيدي التَّحيةَ

- عسقلانُ⁽³²⁾

وكنتِ واصلتِ الغناءَ

وكان حزناً

كان حزناً

كان حزناً

والحزاني مَلهمُ «غرسُ الدَّوالي»⁽³³⁾

- هذه أصواتنا

زَحفتُ على شوكِ النَّخيلِ العاقرِ

المتوحِّدِ الهاماتِ

في أمدٍ من الصَّحراءِ

ما ماتتُ

ولكن جُرِّحتُ

صارتُ نشيجاً تارةً

ورخيمةً أُخرى

- في الحالتين -
أليفةً تنصبُّ في الدَّمِ
والنَّبيذِ
وفي الصَّلِيلِ
وفي السُّكُونِ
- وشهريارُ على ذبائحه الصَّبايا
والعَوِيلِ
- عذابنا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ
- ولا تضيعُ الأغنياتُ إليك
لوضاعِ الدَّلِيلِ
- وضاعَ في الزَّمنِ المَريِرِ
فواصلَ الأحبابِ خطوهمُ
على طرقٍ من الشَّهداءِ
والدَّمِ
والصَّهِيلِ
- وبغتةً
- وكما يُدوي الرِّعدُ في أيارَ
يولدُ في قوافلنا الدَّلِيلُ المُستحيلُ
فلا نفاجاً بالسُّقُوطِ
وبالنُّهُوضِ

- نغوصُ في نغمِ الحِداءِ

نرفُ في قُبَلِ الصَّبَايا

لا نموتُ

نظلُ

هبتنا

أصابنا

بنادقنا

بيارقنا

تشيرُ إليك يا عكّا

- وترتدُّ العيونُ

الصوتُ

- يخذلنا الدليلُ

ووحدهُ وقفُ على قَدَرِ السُّقُوطِ

ونحنُ نمضي

- مرحباً

يا مرحباً

زمنُ الوصولِ . . .

القدسِ . . .

يا عصرَ البنادقِ . .

والمحبةِ . .

والسَّلامِ . .

(1)

أَعْمَلُ بُنَاءً

أَضَعُ الْأَحْجَارَ عَلَى الْأَحْجَارِ

اِثْنَيْنِ

اِثْنَيْنِ

حَبِيبًا ضَمَّ حَبِيبَتَهُ

أَكْمَلْتُ الْيَوْمَ مَشَارِيعَ السَّنَوَاتِ الْأَلْفِ

بِوَتَاءٍ تَرْبِطُ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْآخِرِ

رَوْضَةَ أَطْفَالٍ

وَحَدِيقَةٍ

يَرْبِطُ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْآخِرِ

جَسْرٌ مَحَبَّةً

فَالْبَيْتُ الْوَاحِدُ

بَيْتٌ

بَيْتَانِ

مَدِينَةٌ

وَالْمَدَنُ الْمَبْنِيَّةُ فِي مَشْرُوعِي

بَيْتٌ وَوَاحِدٌ

كُلُّ النَّاسِ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَنَازِلٌ

حَتَّى أَطْفَالِي

من سكنوا الرِّيحَ
البردَ
الموتَ
بُنيتْ لهم في الرَّملةِ
أخرَيْتُ
وغداً يبدأُ مشروعُ السَّنواتِ الألفِ الأخرى .

(2)

- سأَمْضي إليه
اسْمَحُوا لي
حبيبي ينتظرُ الآنَ
عندَ الموانئِ
بينني لكم سفناً
كالتي أمسِ كنتم
حلتمُ بها
أنَّها حملتكم إلى قيصرية⁽³⁴⁾ فجراً
رستْ حيثُ أنتم
على شاطئِ اللَّيلةِ الثانيةِ
حبيبي يلوِّحُ لي
أسرعي . . . يا رفيقهُ

لَا تَحْمِلِي بَعْدَهُمَّ
فَمَوْعِدُنَا السَّاعَةَ الْعَاشِرَةَ
وَمَوْعِدُنَا مَا تَبَقَّى
الْمَوَاعِيدُ
كُلُّ الْمَوَاعِيدِ عَادَتْ
لَنَا الظَّاهِرِيَّةُ⁽³⁵⁾
دُورًا⁽³⁶⁾ الْخَلِيلِ
اسْمَحُوا لِي
إِذَا الذِّكْرِيَّاتُ تَدَاعَتْ عَلَيْكُمْ
فَإِنِّي أَنَا الذَّاكِرَةُ.

(3)

صَبِرْتُ عَلَى ظَلَامِ السَّجْنِ
وَالْمَنْقَى
حَمَلْتُ حَقَائِبِي
قَيْدِي
وَأُورَاقِي
الْقِصَائِدَ
وَالْمَوَاوِيلَ الْحَزِينَةَ
وَقَفْتُ فِي رَأْسِ الرَّجَاءِ

تسوّكْتُ كُتبي

فَهزَّتني الإِهاناتُ

البواخِرُ خَلَفَتني

والقطاراتُ السريعةُ

والبطيئةُ

والوجوهُ

الطائراتُ

الريِّحُ

والمطرُ الحنونُ

وكنتُ . .

أصيرُ حيثُ أكونُ أشجاراً مَيَّسَةً

ونافذةٌ تَحَنَّنَ عِنْدَها اسمي

وتاريخي

شَرَدْتُ عَلى الرِّصيفِ

وأهـ

كنتُ فُقدتُ ذاكِرتي

وعنواني

وجدتُ هويتِي

يا «عيلبون»⁽³⁷⁾

تلمَّستُ كُفِّي جدارَ الدَّارِ

بالنَّارِ
أَعُوذُ الْآنَ طِفْلاً
عَمَدَتُهُ النَّارُ فِي أَيْلُولَ
عَدْتُ إِلَيْكَ يَا وَطَنِي
وَعَدْتُ إِلَيَّ
فَاشْتَدْتُ سِوَا عَدُنَا
عَلَى كَتْفَيْكَ
أَعْدُو بِاتِّجَاهِ حِجَارَةِ الْحَاوُوزِ (38)
أَلْتُمُّهَا
يُبَارِكُنِي رِذَاذُ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ
الرَّمْلُ
السُّنُونُو
الْبَيْتُ
أَعَشِقُ كُلَّ مَا فِي أَرْضِكَ - الْخَضِرَاءَ
وَالْجُرْدَاءَ -
صِرْتُ الْحَبَّ
حَسْبِي الْآنَ . . . يَا وَطَنِي .

(4)

- رَسَمْتُ بِبَابِكُمْ وَجْهِي

شِعَاراً

فِي اللَّيَالِي الْأَلْفِ

جَاءَ الشَّرْطَةُ التُّعْسَاءُ

خَطُّوا تَحْتَهُ بِالْدَمِّ

«مَطْلُوبٌ»

وَمَنْ يُلْقَى عَلَيْهِ الْقَبْضُ

يَكْسِبُ خَلْعَةَ السُّلْطَانِ

إِنْ حَيًّا

وَإِنْ مَيِّتًا

جَرِيْمَتُهُ . . . يَحِبُّ الْأَرْضُ

لَكِنَّا تَوَاعَدْنَا

التَّقِينَا الْيَوْمَ عِنْدَ الطُّورِ⁽³⁹⁾

أَذْكُرُ أَنَا فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى تَلَاقَيْنَا

عَلَى بَوَابَةِ الْمُنْدَبِ

وَخَفْتُ عَلَيَّ

لَكِنَّا تَلَاقَيْنَا

وَفِي الْمُنْفَى تَعَارَفْنَا

وَلَمْ نَأْكُلْ

عرفتك في مناشير الصِّباحِ
وفي وجوه رفاقنا العمَّالِ
والمسؤولين الخبزِ
والمرضى
وفي عينيَّ «رجا» الفلاحِ
كنتُ أموتُ
لولا أنني بيديك علَّقتُ المصابيحَ
العيونَ
القلبَ
ثمَّ أضأتُ
تحتَ النَّفْطِ في «البرقان»⁽⁴⁰⁾
واجتزتُ المرايا
الموتَ
والشُّرْطَةَ
تَلاقينا
ووجهانا أضاءا
عندَ تاريخي
على بوابَةِ المتحفِ
ضحوكُ
هازيءٌ من شُرْطَةِ السُّلْطانِ
تاريخي . .

(5)

أحببتُها . . وخفتُ
مَنْ الذي أحبَّها ولم يخَفْ
خشيتُ أنْ تموتَ قبلَ مولدي
خشيتُ أنْ أموتُ
والموتُ يا أحبَّتي
السُّقوطُ قبلَ النومِ
مثلما يسقطُ طائرٌ على المحيطِ
متعباً
كأنَّما أسقطُ قبلَ الحربِ
لكنني انتصرتُ
والرفاقُ
والأغوارُ
في داخلي
محكمةُ جموعكمُ
وفيكُمُ انتشرتُ جحفاً من القُضاةِ .

(6)

- أنتَ مَنْ أطعمتُها عبرَ الليالي الألفِ
من تَنورِ شمسِ اليومِ

خبزاً
فرحاً معتصراً
من فرح الأرضِ الحزينةِ
أنتِ من سلَّحني بالعسلِ الصَّابِرِ
في «ياصيد»⁽⁴¹⁾

والسَّكِينِ
والمُهْرِ
الطَّرِيقِ
النَّجْمِ
والأَصْحَابِ
والشَّاعِبِ
والمذْرَةِ
والغُرْبَالِ
والمِنْخَلِ
ظِلُّ رَمْشِيكَ عَلَى قَلْبِي
وَفَوْقَ الْقَدْسِ
حزني يتلاشى
والتفاريحُ التي تُرَقِّصُ أَكْتافِي
دَعْتَنِي
حَلْقَةُ الدَّبَّكَةِ
جفرا . . أنتِ يا فرحَ التُّرابِ .

(7)

- أَدَوْرُ وَخَيْلِي فِي رِحَابِكَ

زَغْرَدِي

يا مرجبا

ويا ميجانا

زهر البنفسج يا ربيع بلادنا

ويا ميجانا

الريِّح الشمالي

عدِّي عجيبني

الحمام المرتكي عالسيْفُ

والليل الهني

فارد علينا جناحو

يا حاصودُ

ويا رِيًّا انظري

موسم حصاد سهولنا هذي السني

برجم حمامك يا مليحة

بالغزلُ

برجم حمامكُ

جاوبو زغولنا

يا ميجانا

(8)

- نحنُ ما كنَّا سدىً

نقتلُ

أو كنَّا صدَى الأحداثِ

كنَّا التجربةُ

نحنُ ما كنَّا سوى البحَّارةِ الماضينَ

يا حيفا

ورغمَ النَّوءِ

والقُرْصانِ

والتَّعبِ

الضُّبابِ

الظُّلْمَةِ

الصَّخْرِ

المجاعةِ

والأسى

والموتِ

ما متنا

انذبحنا تحتَ نَصْلِ المَاءِ

ما متنا

وروضنا رِياحَ البحرِ

إِعْصَارًا
وَزُوبَعَةً
وَكُنَّا الْمَوْجَ
وَالشُّطَّانَ
فَأَلْتَحَمْتُ سِوَاعِدُنَا
إِذَا افْتَرَقْتُ
وَعَيْنِنَا الْمَوَانِيءَ أَغْنِيَاتِ الْبَحْرِ
فَارْتَعَشْتُ
رَسَوْنَا فَوْقَهَا
انْتَفَضْتُ
وَلَمْ تَرَحَلْ.

(9)

-هل ترقصينَ معي
في حلقةِ اللَّيْلَةِ؟
فرحي على كفيكِ
موشومٌ
هنا عَمَّانُ
والزَّيْتُونُ
واللَّيْمُونُ

والْحِنَّةُ
هذي يدي مرويةٌ بالنَّارِ
والفولاذِ
والنابالمِ
أوسمتي
عيناكِ
والوديانُ
والأحراشُ⁽⁴²⁾
والنَّقبُ
انتصَرنا
حربةً
ومناجلاً
ومعاولاً
وبنادقاً
جرساً
ورنَّةً .

(10)

للحبِّ غنينا
على وترِ الرَّبِّابِ

تعثرتُ خطواتنا
وتناثرتُ
لهباً
- أغانينا -
وأحجاراً
وأجدائاً على الطُّرقِ البعيدةِ
والهوامشِ
والعذابِ
تمخَّضتُ عنا اللَّيالي الألفُ
في الوحداتِ
في الأرضِ الخرابِ
تهدَّمتُ أحزاننا
انهارتُ مسالخُ شهريارَ
فأسرَجُوا كلَّ البنادقِ
واجمعوا كلَّ الرِّجالِ .

(11)

وأنتَ تلوَّنُ وجهي
تذكَّرُ
عذاباتنا

والدماءَ
الدموعَ
الأيّينَ
الأراملَ
والشهداءَ
اليتامى
الثكالى
وليلةَ (الله أكبرُ)
(الله أكبرُ عالظالمينُ)
تذكرُ قساةَ البساطيرِ
والأعينَ
الرُّعبَ
والحبلَ
والفأسَ
والأشرفيةَ
والبنديقةَ
والقصفَ
ليلةَ (الله أكبرُ)
عمانُ . . . الله أكبرُ
والنَّصر . . حتماً

تذكّرُ

وأنتَ تلوّن وجهي

تذكّرُ

بأنَّ شريطاً من الأرضِ في آخرِ الكونِ لم يتحرّرْ
وأنتَ أنتَ المحرّرُ.

(دمشق - 1972/3/15)

الهوامش :

- (1) الثلاثاء الحمرء يوم أعدم ثلاثة من أبطال ثورة (1929).
- (2) معتقل في فلسطين أيام الإنتداب البريطاني .
- (3) مكان في فلسطين .
- (4) ناثو من جبلة في سوريا ، ومفجر الثورة الفلسطينية العام (1935) .
- (5) قرية استشهد فيها القسم .
- (6) العلف .
- (7) جسر على نهر الأردن .
- (8) من أفقر أحياء حيفا .
- (9) بعوضة .
- (10) مدينة في شمال الأردن على الحدود مع سوريا .
- (11) مدينة عراقية على الحدود مع الأردن وسوريا .
- (12) أحد أسماء سيف .
- (13) الجنية .
- (14) من قرى فلسطين المحتلة العام (1948) ، حيث قام العدو بارتكاب المجزرة الشهيرة .
- (15) زوجة أبيه .
- (16) اسم لعدة أماكن في الوطن العربي ، لكنه هنا مكانٌ في بيروت عسكر فيه الصليبيون في إحدى حملاتهم ، وهو أيضاً قمةٌ بأسلة من قمم عمّان .
- (17) أحد أحياء عمّان .
- (18) قريةٌ ذبح عساكر الملك عدداً من الفدائيين عندها .
- (19) البنادق .
- (20) أسماء لمواقع في فلسطين خاض فيها ثوار شعبنا معارك بطولية منذ العام (1936) وحتى العام (1948)

- (21) هضبة شهدت معارك الميليشيا ، وهزيمة جيش الملك جنوب إربد إبّان أيلول .
- (22) منطقة حرشية شهدت المذبحة الأخيرة في تموز (1971) في الأردن .
- (23) أحد مخيمات عمّان .
- (24) مكان في القدس .
- (25) موقع تحطمت عليه عدة هجمات من دبابات الملك في عمّان إبّان أيلول .
- (26) معتقل في صحراء الأردن تعرفت إليه قوافل المناضلين خلال السنوات العشرين الماضية .
- (27) من قرى حيفا .
- (28) قرية الشاعر .
- (29) من قرى القدس .
- (30) من قرى إربد .
- (31) أعلى جبال فلسطين في الشمال .
- (32) في جنوب فلسطين .
- (33) مكان في قرية الشاعر خاض فيه بقايا ثوار العام (1939) معركة باسلة .
- (34) مدينة قيسارية الفلسطينية على الساحل .
- (35+36) من قرى الخليل المناضلة .
- (37) نفق عيلبون ، حيث أولى عمليات الثورة الفلسطينية في (1-1-1965)
- (38) حاووز الأشرفية حيث قاتلت الميليشيا ببسالة في أيلول .
- (39) جبل الطور في فلسطين .
- (40) من أهم حقول النفط العربية .
- (41) من قرى نابلس ، وكانت مركزاً مهماً من مراكز الثوار العام (1936) ، وكانت مشهورة بتربية النحل
- (42) جرش وعجلون .

أغنية حب عربية
إلى هانوي

أمي . . . وكلمات السرّ العبرية

« إلى أمي تحت وطأة الاحتلال الصهيوني داخل وخارج الأرض المحتلة »

. . . واجتزت الجسرَ

وعرّاك الحرسُ الملكيُّ

وفتّشَ عن سفرٍ عربيِّ

صادرَ ضوءَ عيونك

قلْبك

غضبَ الرّحلةِ

عرسك

واهتزَّ الجسرُ

عبرتِ تخومَ الغورِ وفي زنّاركِ يا يمه

الكلماتُ العبريَّةُ

سرُّ الليلِ

على شطّيّ جُرّحي

النازفِ في الأرضِ المحروقةِ

والمسيبةِ

كانت إربدُ غولاً

والمدنُ الأخرى غيلاناً

ترصدُ في الظلمةِ أحبابك

تصطادُ الواحدَ بعدَ الآخرِ
تأكلهم في عزِّ الظُّهرِ
وتنشرُ أعينهم فوقَ الحيطانِ
جريدةَ إعلاناتِ
عن موتى متروكينَ بدونِ مقابلٍ
أو مجاناً
طُرحوا للبيعِ فماتوا
بعدَ الموتِ ثلاثاً
ألفاً
أرخيتِ على كتفيكِ رداءَ حدادكِ
بعدَ الذكرى الألفِ لموتي
يا يمه
معذرةً
إنْ قلتُ لعينيكِ : طريداً عدتُ
وأنتِ غريبةٌ
والكلماتُ العبريةُ سرُّ الليلِ
على الشطينِ
على الطُّرقِ المحظورةِ أن يتخطَّها الحزنُ الثوريُّ
المتجددُ في قلبي
في عيني

وفي فوهة الرّشاشِ المختومِ

على الأسئلةِ الصّعبةِ

حول الماضيِ

والحاضرِ

والمستقبلِ

يا يمه

لا تأسي! إن لم يعرفني الشرطيُّ

ويباعُ البترولِ

ويباعُ الصّحفِ

فما عادت مصدرَ ربحِ أسمائي

ما عادَ العنوانُ المعروفُ لهم بالأمسِ

اليومَ على دفترهمْ

سرقوا اسمي

العنوانَ

المنفى

سرقوا أوراقي

وجوازَ السّفْرِ

ووجهي

أخذوهُ إلى المتحفِ

وتربّعَ راويهم فوقَ ضريحي

يحكي عن سيف اليزني كلاماً
باللغة العبرية
وارتدَّ سؤالك دمعاً - في عينك -
دماً

- يا ولدي ..

مَن يعرفه؟

في جبهته جرحٌ
وعلى كتفيه حقولُ القمحِ
وغاباتُ الزيتونِ
وفي كفيه بيادرٌ
فوق القلبِ تماماً .. نجمٌ أحمر
من أيلول .. وسام بطولة
مَن يعرفه؟

يا ولدي

وارتدَّ الصوتُ

سمعتك

لم أسأل كيف أمرٌ إليك
وليس معي من سرِّ الليلِ
ولا حتى كلمة
يقبلها الحرسُ الملكيُّ

والطرقُ المحظورةُ
لم يعبرها إلا أنتِ
بزَنّاركِ . . يا يَمِّه
كم يذبِحني
يا يَمِّه
يا يَمِّه
أنّ جوازَ مروركِ عبرِ الجرحِ العربيِّ
الكلماتُ العبريةُ .

(دمشق - 3/2/1972)

في البحثِ عن قطارِ آخرِ الرحلات

وكما يحدثُ في كلِّ سنينِ القحطِ

انهمرَ الثلجُ

تجمدَ في عينيَّ الدمعُ

ضحكتُ مع الأطفالِ

.....

.....

وأحزنُ لو خُلفتُ وحيداً

تحتَ التينةِ

أسألُ عن أمِّي

أشتاقُ لها

أنوهجُ

لو ضممتني

لو ناراً فيَّ «براكيناً» في السيلة¹

تُشعلها يدُ أختي مريم

لو جدتنا لولو

تحكي لي اللية عن حسن الشاطرِ

أو تحكي لي أمِّي عن فرسانِ الثورةِ

عمن خلفنا في «البراكية»

جوعى ويتامى
وتفجّر فوقَ جبالِ فلسطينَ يُقاتل

.....

وانصهرَ الثلجُ

بكيتُ

صحوتُ على المنفى

الوحدِ

المقهى

الحزنِ

وفي شفّتي «الحز» المتغرب

عن بيّارة أحبابي

سكيناً يذبّحني

كان الزمنُ القاصرُ مرّاً

يتعرّى حولي

ويدورُ

يحاصرني

و«السيلة» تغرقُ في البُعدِ

وأُمِّي

في بطنِ الصحراءِ

تسائلُ حَبَّ الرَّمْلِ

وأكوامَ «الصلبوح»
عن السيفِ النَّائمِ
تحتِ عباءةِ فارسها المقتولِ
والنخلُ عقيمٌ
لا يلقي للأرملةِ الجائعةِ
ولا حتَّى حبةِ تمرٍ
أو فوقَ جبينِ الغربةِ ظلاً
أرتعشُ على السَّفحِ المجروفِ إلى القيعانِ
ويبدو لي أنني أسمعُ صوتَ قطارٍ
أزحفُ
أثبَّتُ بالأحجارِ
وأزحفُ
أنتعلقُ، أيضاً، بحبالِ الرِّيحِ
وأزرعُ في أذنيِّ صفييرَ قطارِ «السَّيِّلة»
أربطُ كلَّ عظامي
حزمةً تعبٍ
ورحيلاً
مجروحَ الصِّدرِ
ومذبوحَ القدمينِ
مدمىً

وعذاباً

ومذلةً

لا يعرفها غيرُ اثنينِ

فلسطينيٌّ

وفقيرٌ عربيٌّ أمميٌّ

مطرودٌ . . . ومطارِدٌ

.....

وأطلُّ من الشباكِ

وأطرقُ باباً

وأدورُ

ولا

يُبلغني عن موعدِ سفري أحدٌ

فالمبنى خاو

كذبٌ . . . ليسَ محطةً

لكنَّ اللوحَ الأسودَ فوقَ رصيفِ الرحلةِ

يعلنُ أنَّ قطاراً سوفَ يمرُّ

ليحملني . . . للمنفى الآخرِ

يا أطفالِي

يلفظني هذا المنفى الليلية

بردٌ

يتجمدُ دمي
مَنْ منكم يهتفُ
- يا بابا . . لا ترحلُ
- يطردني . . ويطاردني
زمنٌ ما فيه سوى أرصفةٍ محطاتٍ
تستقبلني
وتودِّعني
وأموت ملايين المرَّات
أفتشُ عن واحدةٍ
تعلنُ عن آخرِ رحلةٍ
تُعلنُ أن قطار الفجرِ الذاهبِ للسيلةِ
لن يخلفَ وعدهُ
فوداعاً يا أطفالِي
- لا ترحلُ يا بابا
- يا ولدي
- لا ترحلُ يا بابا
- ويلي
- هل تبكي
- يتفصدُّ من عيني دمي
- هذي المرَّةُ . . لا أدري

معذرةً يا أطفالي
سوف أجيبُ لكم كتباً
وبنادقَ
وحمامةً
فوداعاً يا أطفالي
- يا بابا
لا تتأخَّرْ
سوف يمرُّ قطارُ «السَّيِّلة» في أعيننا
لا تتأخَّرْ
سوف يمرّ.

(دمشق - 1972/2/8)

عن أبي ذرّ

الصوتُ الألفُ جرى مثلَ السيفِ

لكنِّي أصمداً تحتَ هزيمِ الخوفِ

ولساني يتعقّدُ

يتعقّدُ

يتعقّدُ

لا أسمعُ

يا من يطعمني وصغاري

وجبةَ إفطار بقصيدة

هل أتسوّلُ؟

عفواً أبي ذرّ . .

لكنّ الصوتَ المتدفّقَ يذبحُ حنجرتي

يقطعُ أوردتي

السيفُ الخارجُ نحوَ جماجمكم

قبلَ وقوعِ الضربةِ فوقَ الأعناقِ المحنيّةِ

يا موتى الرّعبِ

قبلَ الموتِ

وبعدَ الموتِ

ويظلُّ زمانُ الصّومِ طويلاً

يرحلُ في الطُّرُقَاتِ البَكَرُ
والشَّعْرَ المُرُّ

يتقوّتُ من أعيننا الشَّعْرُ

أكلَ رصيْدَ الرِّحْلَةِ

والرُّؤْيَةَ

والصوتُ تكسَّرَ عندَ حدودِ فَمِي

- يا مَنْ

لكنَّ أبا ذرٍّ ولدَ على شفتيَّ

وفي كفيهِ السيفُ

صَمْتُ

وغازلتُ الحصوةَ تحتَ لساني

وربطتُ بأمعائي حجري الأزليَّ

تسترتُ على جوعي

لكنَّ صغاري فضحوني

فشهرتُ ذراعيَّ أصدُّ الضربةَ

لمُ أبدأ

وتأخَّرتُ

خيبتك يا عمّان

ويا وطني

لا ترحمني إن سقطَ السيفُ

- خذوني

بدلَ رَغيفٍ من خبزِ القمحِ
صغاري يتظرونَ على ناصيةِ

عمر بن الخطابِ

وفوقِ النارِ

يصيرُ الماءُ حساءً

لكنَّ يبقَى الحجرُ الأسودُ

والنبيُّ

الحجرُ الصخراويُّ . . . حصيُّ

وأعودُ إلى الصحراءِ

نياً

ينذركمُ

ويشركمُ

أنَّ الصحراءَ غداً تخضرُّ

وأنَّ الصوتَ يموتُ

ويبقى السيفُ

ويبقى الخبزُ عن الأيدي المتعبةِ الثكلي مغترباً

يتعلقُ منتظراً أفواهَ صغاري

لكنَّ بصيرتهم تدرِكُ أنا كي نغتصبَ طعامَ الغدِ

لا بُدَّ نجوعُ اليومَ

ولكي نفتحَمَ التقويمَ المتنكَّرَ في ثوبِ اللحظةِ
فوقَ شفِيرِ الموتِ
لا بُدَّ وأنْ يتنامى فينا الخوفُ.

(بيروت - 17/2/1972)

أغنية حبّ عربيةٍ إلى هانوي

عندما يسقطُ الأصدقاءُ الذينَ اعترفنا لهم بالمحبةِ

في مطلعِ الصَّيْفِ

قبلَ الخريفِ بفصلٍ

يموتونَ

عندَ حدودِ يديكِ المقيّدتينِ بعيداً

ودُوني يقومُ وفوقي الطريقُ الخطيرُ

الذي انهزمتُ قبلهُ أعينُ العاشقينَ

وعينا صديقي

وعيناكِ تختبئانِ قبيلَ مواجهتي

يا بلادي . . .

تموتينَ؟

أم موسمُ النّومِ أطولُ؟

أكثرُ طولاً من الموتِ؟

لا أفهمُ الآنَ

هانوي تقصفُ إذ تتقدّمُ

تنتصرُ الآنَ

لكنّ تنامينَ أنتِ

تموتينَ

ما الفرقُ؟

أجهلُ

لكنني كنتُ أعرفُ كيفَ انتفضتِ على مطلعِ القرنِ

كانَ الحريقُ

وأنتِ

وكنتُ

وكانَ الذينَ اعترفنا لهمَ بالمحبّةِ

كنا جميعاً

- «بلادي . . بلادي»

سقوطاً ألا أيّها الأصدقاءُ

نهوضاً

على جثتي النارُ لم تنطفئْ

أدركوني

إذا سقطَ الأصدقاءُ على جبهتي

ثمّ قاموا يسيرونَ عكسَ الطريقِ التي حلمتُ بالبنادقِ

كنا معاً

أتساءلُ

معدرةً

ما تعرّفتُ للجسدِ الظامئِ المتلفحِ بالليلِ

والريحِ

والجمير
كانت يدي . . التصقتُ خلفَ ظهري
نفرتُ من الخوفِ للخلفِ
أهوي
الفراغ
الفراغ
الفراغ . .
وأهوي
وداخلَ صدري انتصبتُ
وقوفاً . .
وأهوي
وقوفاً أظلُّ
وأهوي
ويهوي معي الأصدقاءُ
على شاشةِ السينما العربيةِ
أو في زوايا المواخيرِ
ينتهكونَ
يَظنونَ أَنَّهُمُ يَلعبونَ على الضوءِ أدوارَهُم
يدركونَ مع الفجرِ أن بلاداً تغوصُ
تغيبُ

وترحلُ عنهمُ
وهمُ يكتبونَ كثيراً
وهمُ يقرؤونَ كثيراً
وهمُ يلعبونَ كثيراً
على وهجِ الضوءِ مثلَ الفراشاتِ
لكنْ على الشاشةِ العربيةِ
يا ويلهمُ . .
يسقطونَ نياماً
ينامونَ في صالةِ العرضِ
أو يُقتلونَ بهانوي
تلكَ التي لمْ تنمُ
تتقدَّمُ
ترحفُ
تنضمُّ في قلبها كلُّ تلكَ البحيراتِ
إنْ زينتْ صدرها
زيتهاً بلوتسةً أخطاتها القنابلُ
غنى لها الشاعرُ المتيقِّظُ بالشعرِ
والبنديقيَّةِ
للحلقاتِ التي كوَّنتها أغانيه من حوله
- «أيُّها الأصدقاءُ»

أُعْنِي لَكُمْ . .

وأقولُ لَكُمْ . .

يا ربيعَ بلادِي الذي يَنْبُتُ الآنَ فوقَ رؤوسِ المغاويرِ .

عبرَ الأراضِي التي حرَّروها

وحولَ . . وفي قلبِ حاراتِ سايغونِ

في ساحةِ البنكِ

في وجهِ أنجِيلا ديفنزِ

في الأباِما

وهارلمِ

يطلعُ هذا الربيعُ

اسمعوني

أقولُ لَكُمْ : في البلادِ البعيدةِ حيثُ ينامونُ

في طرفِ الخندقِ الآسيويِّ . . المسمَّى . .

هو الوطنُ العربيُّ

الفدائيُّ كانَ ، هناكَ

ويقتلُ ، أيضاً ، هناكَ

ويولدُ ، أيضاً ، هناكَ

ففي زمنِ الغزوِ

في وقفةِ الخندقِ الآسيويِّ

هزمتنا المغولَ هنا»

- «عينُ جالوتَ معركةِ أنتِ»

لَمَّا انتصرتِ . . . انتصرنا

انتصرنا

هلا يا ربيعُ . .

بلا دي التي أمحلتُ

أينَ همَ أصدقائي؟ وأنتِ؟

وما بيننا ذكرياتُ

وما بيننا المدنُ العاهراتُ

وأبناؤها الأوفياءُ

وما بيننا الأصدقاءُ الذين تساقطَ كلُّ على عتبةِ

أوفراغِ

وما بيننا غيرُ هذا

وهذا كثيرُ

أنوءُ

وأهوي

وفي داخلي يقفُ الفقراءُ

وفي داخلي يقفُ الشهداءُ

وفي داخلي تقفينَ

وفي داخلي عشراتُ السنينِ

مئاتُ السنينِ

وفي داخلي أبدٌ حدهُ أنتِ
أين أمدُّ يديَّ . .
ذراعيَّ . .
رأسي
تمدَّدتُ في الغورِ
صرتُ قتيلاً بعمَّانَ
كنتُ الوليمةَ
والنَّارَ
والذَّبَّ
والأدعياءَ
انهدرتُ على ساحةِ السَّوقِ
إني تدفقتُ أعلى من الدَّمِ
أرخصَ من جيفة هجرتها وحوشُ البراري
أنا
والبراري يظلُّ الغريبُ بأرجائها
في الزمانِ العصبِ غريباً
وأنتِ الغريبةُ
في برهةٍ يسقطُ الأصدقاءُ
كأنُّ لم يكونوا
ولا ههنا يقفونَ

أُحَدِّقُ لستُ أرى غيرَ ما في يدي

قلمٌ

يتلقَى الأوامرَ

لكنَّها لا تمرُّ

تموتُ على سنِّه

تتلاشى

وأهوي

وأهوي . .

ولكنَّه الشعرُ يَأبى السقوطَ

ويأخذني نحو هانوي

نحوك . . يا إربدَ انتظري عودتي

واقذفيني

أمرٌ خاللك من فتحة الثوبِ

أورثتيك

ابنك الآن يولد في الضفتينِ

وغزاة

والوطن العربيُّ

اسقطي

أوفقومي

كما يسقطُ الأصدقاءُ

وفي غربتي يولدونَ

يصيرونَ جيشاً . .

وجيشين . .

أكثرَ

أو أمتي تتلملمُ

تلقي عباتها فوق كتفي

وتخطو على جسدي خطوةً . .

خطوتين

وتزحفُ بي

هذه أنت

من حرم الحبِّ؟

من ينسفُ الجسرَ بيني وبينك؟

نبيه

لكنَّهم ينسفونَ الجسورَ إليك

يُعيدون في باب هانوي ترميمه كَلِّمَهُ هدموه

ويبقى لتعبره امرأةٌ حاملٌ

ورسولٌ

هنا الجسرُ يسقطُ من قبضتي

حطَّمتهُ المدافعُ

والقصفُ

والأصدقاءُ
ويستقطُّ
أهوي
ولكن هانوي تصمدُ
أصمدُ
بيني وبين الشريعةِ جسرٌ من النَّاسِ
قتلى
وجرحى
ومعتقلين
وبيني وبينك شيءٌ عزيزٌ
وغال
هو الحبُّ
أنت التي علمتني
أحبُّك
لو أنني ما قتلتُ
ولو أنني ما شنتُ
ولو أنني ما سجتُ
لعت لكى يقتلونى
لعت لكى يشنقونى
لعت لكى يسجنونى

لأجلك

ما قيمتي ؟

والمنافي . . مناف

وتزدادُ أعدادُها

وأنقل فيها بدون فم . . أو بدون الهوية

هذا أنا الآن أرتدُّ دونك

يصدمني أنني ما خسرتُ صديقاً

ولكنهم يسقطون

ولا يسقط العصرُ

هانوي ترفعه بيرقاً

فتمتته

اقتليني

أنا عشتُ في الظلِّ

لما نهضتُ

تلكأتُ

ساومتُ

مغفرةً

سامحيني

تلكاً من جرِّ حوالي جبيني

ومن ساوموا

لا تقولي
قبلتُ
تمردتُ
لكنما يسقطُ الأصدقاءُ ثلاثاً
ثلاثاً

وينهدمُ الهرمُ
الخدقُ
الآنَ
تنهزمُ الكبرياءُ التي إذ تدورُ
تدورُ على نفسها فتدوخُ
وتسقطُ

لا . . فجأةً
كلُّ زيتونةٍ موسمانٍ لها
نفلٌ
وغلالٌ
فلا تحزني
والنخيلُ له موسمانٍ
وللتينِ في أرضنا موسمانٍ
وللحربِ
للحربِ

يا نبتَ حزني

وشوقي

وكلَّ الرَّحِيلِ القَديمِ

وكلَّ الرَّحِيلِ الجَديدِ

إِليكِ

وعنكِ

بدونِ الحَقائبِ

والأَصْدقاءِ

وبالحبِّ

والشهداءِ

تساءلتُ كَيفَ أَنهَزمتُ؟

نظرتُ إلى داخِلي

ما قرأتُ سِوى آيةِ النَّصْرِ

جوَدَّتْها . . فانثَشتُ

وسَلَّمتُ أُسْلحتي

آه

سَلَّمتُ أُسْلحتي

وارتَضيتُ الحِصارَ وِلاءً

ومَعرفةً أَنني سَوفَ أُقتلُ

دونَ سَلاحِ

سُرقتُ سُلحاً
وقاتلتُ من خِلفِ ظهْرِ الوِلائِمِ
والاتِّفاقِ على الذَّبْحِ
والتَّصْفِياتِ
التي لم تزلْ
تتداعى على وجهِ أُمِّي ملامحُ هانوي
أذكرُ أَنِّي مشيتُ على أرضِها
زرتُ ميناءَ هايفونغ
أذكرُ أَنِّي درستُ انتصارَ الملايينِ
شاهدتُ تِلاءً من القُبَعاتِ
بحاراً من الناسِ
أوسمةً في المتاحفِ
حدّقتُ فوقَ الخرائطِ
قستُ «بِأصبعتي» كيفَ تَتَّسعُ الأرضُ
تحدّثتُ تنمو
ثمَّ صُمتُ احتراماً
سألتُ
سألتُ كثيراً
فجاوبَ أطفالهم مثلما جاوبتني جموعُ الرجالِ
وكلُّ النساءِ

- «انتصارٌ لكم خلفَ نهرِ الشريعةِ

يدفعُ قواتنا للأمامِ

مزيداً من الصبرِ

كلُّ الصعوباتِ هانتُ هنا

يا رفاقَ المسيرةِ

يؤسفنا أننا لا نقدّم غيرَ التجاربِ»

هانوي تختزلُ الآنَ كلَّ التجاربِ

أحجَلُ

تقصِفُ

أحجَلُ

تقصِفُ

لكنّها تتقدّمُ

لم تبني فيها العماراتُ

لكنّنا نظمتُ كلَّ شيءٍ على طرقِ النصرِ

حتى الهواءَ تنظّمُ

كلُّ له دورهُ

والقتالُ طويلٌ

مريرٌ

على جبهةِ النهرِ والفيضانِ

على جبهةِ الفقرِ

والجوع
والغزو
أخجل
هانوي تُقصِفُ لكنها تتقدَّمُ نحوي
ولا أتعلَّمُ
يا وطناً يتلقَّى سقوطَ صديقي
أدخُنُ كلَّ السجائرِ
كلَّ السجائرِ
أسهرُ
أسمعُ فيروزَ
نشرةَ أخبارِ هانوي
أرتدُّ نحوَ إذاعةِ عمَّانَ - تل أبيبَ
وأحتاجُ بعضَ السجائرِ
والوقتُ منتصفُ الليلِ
فارغةٌ علبتي
أتناولُ عودَ الثُّقَابِ وأشغلُ نفسي
أدخُنُ . . .
أرمي عيوني إلى البحرِ
أرتحلُ الآنَ عبرَ المنافي وحيداً
طريداً

أخلفكم أيها الأصدقاء الذين اعترفت لهم بالمحبة
أندم أنني ارتحلت
ولكنني في الحصار
وسلمت أسلحتي
أرغموني
تساءلت
هل ضللوني؟
وحاكت كل المسائل
ما ضللوني
ولكنهم أفرغوني
فسلمت في كل يوم لهم بالتسلسل
في كل يوم
تبقى لساني
فثرثرت عن كل شيء
وحتى عن النصر
عن كيف سار معي الأصدقاء إلى المسلخ البدوي
ضريراً يقودُ ضريراً
ومن درس هانوي لم أتعلم
توكأت فوق العصي التي ينخر السوس فيها
وقعت

وقعتُ
وسالَ دمي
لم أقمُ بعدُ
لكنّني أتأرجحُ
عظمي يساندُ عظمي
توقّعتُ أنّي تعودتُ أن أتوكأُ
والدربُ يصمدُ
لكنّني أتدحرجُ في الرّيحِ
والملاحِ
في بيدرٍ كانَ قمحاً
وصارَ رماداً
رماداً تهبُّ ضفائرُ أمّي عليكِ
وتشتاقُ أن تحتضننّني على ركبتيها معاً
غيرَ أنّا بعيدانِ
هذا أنا في المنافي التي تتجدّدُ
تكبرُ
أو تتعدّدُ
أنتَ هناكِ
ووجهكِ مستغرقٌ في الذّهولِ
يتيمُّ تطوّفه هجرةُ الأهلِ والأصدقاءِ

حتى أنا لا أنامُ
ولكنه الموتُ يأخذُ شكلَ الثيابِ
وشكلَ الجلودِ التي أرديها
وشكلَ جفوني إذا طأطأتُ
أو هواني على سفنِ الموانئِ
ترفعُ فوقَ الصواري على أفقنا شارةً
أنَّها تحملُ النفطَ نحوَ

المصافي

تكرّرُ فيما تكرّرُ كلُّ الشعوبِ التي قاتلتُ
وتقاتلُ
لكنَّ مصفاةَ هانوي تعملُ
تسقطُ منها المطاراتُ
والطائراتُ
وتسقطُ منها الجيوشُ
أجلُ
والمحيطُ يعانقُ أسرارهُ
والفضيحةُ أنِّي هنا
وقريبُ إليكِ
قريبُ
وأعجزُ أنْ أردي حالةَ الحربِ

أَنْ أُسْتَرَدَّ ثَبَاتِي
وَأَنْ أُسْتَعِيرَ مِنَ الْخِصْبِ وَجْهًا
أَصْدُّ بِهِ الْعَقْمَ حَوْلِي
وَفِي فَوْهَاتِ الْبِنَادِقِ
فِي رَحْمِ أُمِّي
وَدَدْتُ لَوْ أَنِّي أَعُودُ جَنِينًا
أَشْكُلُ وَجْهِي
وَصَوْتِي
وَأُرْسِمُ خَطُوبِي كَمَا تَحْلَمِينَ
وَيَا ذَكْرِيَاتِي عَنِ الْحَرْبِ
وَالْفَرَحِ الْقَادِمِينَ
وَمَرْتَفَعَاتِ فِلَسْطِينَ
وَالْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ
وَمُنْحَدِرَاتِ الْهَزِيمَةِ
وَالْحَزَنِ
وَالرَّعْبِ
وَالْأَصْدِقَاءِ الَّذِينَ انْتَهَوْا عَلَيَّ مَدَارِكِ
ثُمَّ أَضْمَحَلُوا
وَهَانُوا فِي نَشْرَةِ الصَّبْحِ
فِي نَشْرَةِ الظُّهْرِ

في نشرات المساء
وتحتلُّ كلَّ البرامجِ
كلَّ الجرائدِ
تفرشُ تحتَ الصُّحونِ
يلفُّ بها السَّنْدويتشُ
تؤرشفُ
والصورُ
الملصقاتُ
تقصُ
تعلقُ في المكتباتِ
وفوقَ الأسرةِ
يحلمُ بالثورةِ الأصدقاءُ
ويعضونَ عنها
وباريسُ تحلمُ بي
والمهاجرُ تحلمُ بي
مدخناتُ البواخرِ
بادلتها الحلمَ
أرزحُ تحتَ الكوايسِ
كلُّ المنافي . . منافٍ
أرتبُ أمتعتي

دفترى
وحذائي
ووجهي
وخارطة الوطن العربي
الكبير بأحزانه
والكبير بما يحتوي من حدود
ومعتقلات
ونفط
أودعكم أيها الأصدقاء
أقبلكم في عيون صغاري
وألتصق الآن بالأرض أكثر
يا جسدي المتمثل فيها
أعني
وأطلق سراحي
انتظرنى على باب روما
وباريس
تحت سفوح أثينا
وفي الوطن العربي
احتضني
أقوم . . .

وحولي يقومُ الملايينُ
فيما تبقى من الكونِ
والمجدُ هانوي
هانوي
كلُّ العواصمِ هانوي
والحبُّ للأصدقاء
برغمِ سقوطِ العديدِ من الأصدقاء .

(دمشق - 16/5/1972)

عودة السندياد

« إلى ع. أ. »

لا تقولي : فررتُ
فمي المرُّ يمضغُ زادَ البهائمِ
قايضتُ بالأرضِ جمجمتي
فربحتُ الرحيلَ
أنا السندبادُ الذي أخرجتني المنافي عليها

ومنها

تلقتنيَ الريحُ
صارَ جيبني شراعاً
دماً

من بقايا دمي

يا دمي أنتُ
يمتصهُ الرملُ
والسلطاتُ
فينشفُ فوراً
قبيلَ التحوُّلِ حبراً
وذاكرةً
حافزاً

في العروق التي أنجبتهُ
ففاضَ على الموجِ من أجلها
الدمُ
بيني وبينك
كلُّ الجزائرِ تلبسُ من نولِ أيلولَ
أطفو حريقاً عليها
ثيابي
ولحمي
وأنتِ
تعرفني خفرُ الساحلِ العربيِّ
فراوحتُ بين الموانئِ
من شطِّ بيروتَ
لاسكندرية
واللاذقية
قف . . . وارتحلُ
فارتحلتُ إلى الغربِ
وهراؤُ تدفعني نحوَ طنجةَ
جدةَ نحوَ الكويتِ
وبصرةَ نحوَ طرابلسَ
نحوَ عدنُ

ويسألني الخفرُ المتحدِّثُ باللكنةِ الأجنبيةِ

أينَ الهويةَ؟

أينَ جوازُ المرورِ إلى الشاطئِ البدويِّ؟

وما اسمك؟

هذي هويتي البندقيةُ قبلَ الرحيلِ

فصوّرتُ كالمجرمينَ

وَبُصِّمْتُ

فَتَشَّنِي الحرسُ الجمركيُّ

وكانت بقايا البلاغاتِ اسمي المهرَّبِ

(1) موسى

(2) وكعوش

(3) مظلوم «قومي»

(4) وبدر هلال

(5) وفهمي

(6) وطه

تعرَّضَ لي الضابطُ

احتجَّ

اسمي طويلٌ

ووجهي مدميٌّ

- «ولا بدَّ أنَّا»

لَا بُدَّ أَنْكَ
أَعْرَفُ أَنْكَ
مَحْظُورَةٌ كُلُّ هَذِي الشَّوْاطِي
فَارْحَلْ
- إِلَى أَيْنَ ؟
كُلُّ الشَّوْاطِي قَاتَلَتْ فِيهَا
وَمَنْ أَجْلَهَا
وَقُتِلَتْ عَلَيْهَا
وَصَوَدَرْتُ قَبْلَ الْوَصُولِ إِلَيْهَا
وَلَمْ يَرْتَعْشُ فِي جَفُونِ الْعَسَاكِرِ رَمَشٌ
فَأَبْحَرْتُ لِلْسَّاحِلِ الْأَجْنَبِيِّ
طَرَدْتُ
وَأُنْكَرْتُ قُرْبَ شَوَاطِيْ أْفْرِيقِيَا
وَوَخَلَعْتُ عَنِ السَّاحِلِ الْأَسْيُويِّ
وَعَنِ سَاحِلِ الْهِنْدِ أَبْعَدْتُ
أَلْقَيْتُ خَارِطَةَ الْعَالَمِ الْمَغْلُوقِ الْوَجْهَ عَنِّي
وَلَا تَسْأَلِينِي :
لِمَاذَا أَظَلُّ أَجُوبُ الْمَحِيطَاتِ ؟
حَيْثُ الشَّوَاطِيْ أَكْثَرُ بَعْدًا
وَتَزْدَادُ بَعْدًا

وُبعداً

وأقذفُ عنها إذا ما اقتربتُ

معَ الجزرِ

كلُّ النفاياتِ تطفو على الجزرِ

لا تسأليني

لماذا؟

وكانَ رحيلي إليكِ على شفرةِ المدِّ

ما ذبحتني

حرابُ الأعادي

ولكنُ حرابي

وخنجرُ ربّاني المتخلفِ

والتعاقدِ قبلَ الرحيلِ إليكِ

معَ القصرِ

والبدوِ

والغزوِ

والساعةِ المتأمرِ فيها علينا

ليبقى

ويصبحُ نصفينِ

نصفاً يُموتُ من الاحتلالِ

ونصفاً يصفَى على الشاطئينِ

لتدلجَ بعضُ بقاياهِ في البحرِ
هذا هوَ السندبادُ
وهذي المحيطاتُ تصبحُ أوسعَ
تمتدُّ
تمتدُّ
تمتدُّ

والجوعُ يا وطني قاتلٌ
قاتلٌ
قاتلٌ
قاتلٌ

ابن أمي

تذكرتهُ الآنَ

رافقتني بعضَ حينٍ
وشاركتهُ كسرةَ الخبزِ
شاركتهُ دورتي الدمويةَ
أعطيتهُ من صفاتي ثياباً
وماءً

ولوناً

ليومِ الخطاباتِ

والمهرجاناتِ

يومَ اتخاذاً القَراراتِ
أعطيتُهُ بعضَ وجهي . . . ودمي
ولما قُتلتُ بعمَّانَ
كانَ هناكَ
وأُخرجتُ منها
وأُخرجتُ حتى من القبرِ
لا تجهلينَ
بلادي التي اتسعتُ للغزاةِ قروناً
ولم تتَّسعْ بي بلادي
بلادي
بلادي
أيا جنةَ الغرباءِ
نفيتُ إلى البحرِ
والبحرُ أوسعُ مِنِّي . . . ومنكِ
وتيهاً تصيرينَ
والبحرُ تيهٌ
على مدِّ ما تبصرُ العينُ
لستُ أرى غيرَ دمي
يصيرُ مقالاً
خطاباً

وصمتاً
يصيرُ
وأبحرُ
واليابساتُ مجالُ
وأنتمُ مدائنُ نملٍ تَداسُ بجندِ الغزاةِ
وجندِ السلاطينِ
تصبحُ للسائحينَ مطاراً
ومبغىً
ومنتزهاً
طللاً
لغةً - في فمِ الترجمانِ - مكسرةً
مثلما أنتِ
- والآن هذي نقوشُ
تسجّلُ عصرَ القتالِ «الغبيِّ»
يقالُ مناشيرُ
في زمنٍ قاتلوا فيه ما أنجزتهُ الحضارةُ
ناساً
وطائرةً
وبنوكتاً
سدىً في الممرِّ السياحيِّ ماتوا

- ألم تنصحوهم؟

- بلى

إِنَّمَا قَتَلَهُمْ كَانَ أَجْدَى

لِيَبْدَأَ وَقْتُ

قضى جيله بَابَ عَصْرِ السِّيَاحَةِ

- سوايي لي بيان فيني ⁽⁷⁾ *Soyez Les Bien Venus*

في البلاد التي بيع أبناءؤها الخارجون إلى الموت

فيها

- توداربا ⁽⁸⁾ . . . كلُّ شكري الجزيل

- هلا مرحباً . . . يا هلا

- توتشي توري أغا ⁽⁹⁾ . . . كيفَ حالكَ يا سيدي

آه خوبا ⁽¹⁰⁾

- اسمعوني ⁽¹¹⁾ . . . *Listen*

- بكشا ⁽¹²⁾ . . . يا خبيبي . . . تفضلاً

- تفضلاً

- وي آر لسينغ ⁽¹³⁾ . . . *We Are Listening*

يا عصورَ المذلة

كانتُ بداياتُ كلِّ البلادِ السِّياحةُ

كانتُ نهاياتهم في ذراها

الرعاةُ استفاقوا على الذئبِ بعدَ شتاتِ الشلايا

فصاروا كميناً
كميناً على البحرِ
والجوِّ
صيروا
أصيرُ
هوى الذئبُ . . لكنه
واستحالتُ نعاجُ الرعاةِ رجالاً - غداً -
يا بلادي
تنكرتُ
لن تعرفيني
اختلطتُ مع الحوثِ
فيه
تعلقتُ بالرخِّ
ما ميّزني الأفاعي
تعلمتُ منها الكمائناً
عايشتها
عايشتني
تذكرتُ أن ابن أمِّي نفاني
حزنتُ
تذكرتُ بحارتي

اشتقتُ أنْ نشربَ القهوةَ الصبحَ
أنْ تشترينا الموائِءُ
لكنَّما انحسَ الصوتُ قبلَ الوصولِ إلى الحلقِ مِنِّي
كمنتُ
تسمعتُ
كانَ الحوارُ عجبياً
فهمتُ
يقودونكَ الآنَ مومسَةً
كيفَ؟
كلُّ الفنادقِ تتسعُ الآنَ للمومساتِ
وكلُّ الشوارعِ
واللافتاتِ
- «هنا يرقدُ الخارجيُّ»
ولا يعرفونَ بأنِّي ارتديتُ البحارَ
وأني أعانقُ كلَّ الشواطئِ
دونَ جوازِ
وأني أراهمُ ولا يبصرونَ
أنا السندبادُ
تقمصتُ كلَّ الرمالِ
وكلَّ الصخورِ

تَسَرَّبْتُ مِنْهَا إِلَى قَنَوَاتِ الْمَدَائِنِ

فَالنَّبْعِ

ثُمَّ تَبَخَّرْتُ

إِنِّي الْغَيْوْمُ الَّتِي سَوْفَ تَمَطَّرُ

إِنِّي الْوَعْدُ بِطُوفَانِ عَصْرِ يَجِيءُ

لِيَغْرُقَ عَصْرَ السِّيَاحَةِ

وَالرَّعْبِ

عَصْرَ الْحُكُومَاتِ

وَالصَّلَوَاتِ الْعَقِيمَةِ

وَالْحُزَنِ

وَالْمَوْتِ

وَالنَّفْيِ

إِنِّي أَعُودُ الْأَعَاصِيرَ

وَالعَاصِفَاتِ

الَّتِي تَقْلَعُ الشَّجَرَ الْأَجْنَبِيَّ

وَتَخْلَعُ عَنْكَ الْعِمَارَاتِ

وَاللَّافِتَاتِ

فَلَسْطِينَ أَنْتِ . . أَحَبُّكَ

فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الْمَحْرَرِ

فِي الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الْمُوَحَّدِ

في الوطنِ العربيِّ الغنيِّ بأبنائهِ الثائرينِ

البواسلِ

والأغنياءِ عن الجوعِ

والأثرياءِ

أحبِّكِ

هذا أنا السندبادُ الذي حاصرتهُ المنافي

وصدَّتهُ عنها

إلى البحرِ

- يا بحرُ

أنتَ تمثِّلْتَنِي في القرارِ

وفي الموجِ

ثبَّتْ ذراعِي في المدِّ

وادفَعْ بهِ

إنَّهُمْ يَأْكُلُونَ يَدِيهَا

بلادي الضريرةِ قابعةٌ أشرعتْ مقلتيها

لكلِّ الوجوهِ الغريبةِ

ما أنكرتني

ولكنَّها غسلتْ من دمائي

ومن ذكرياتي عليها

تلبَّستِ الآنَ عاهرةٌ وجهها ليسَ منِّي

أنا السندبادُ الذي أيقظوهُ على صدرها بالمذابحِ

فارتدَّ عنها

وغابُ

وعادَ معَ المدِّ يعلوهُ

يا بحرُ

سَلِّمَ عليها

هديراً

هديراً

هديراً

فلا بُدَّ أنْ يستقرَّ الهديرُ على سمعها دعوةً

للقائي

فتهرعُ زاهية⁽¹⁴⁾ كالترابِ المحنِّ القديمِ

وتخلعُ أثوابها الأجنبيةَّ

ترتادني كلَّ يومٍ

أنادي

هنا يطلعُ السندبادُ على كلِّ شيطانها

والتلالِ الحبالى بهِ

والجبالِ التي خبَّأتُه

هنا

في المفارقِ

والطرقَاتِ الطويلةِ
في قبضةِ العاملِ العربيِّ المدمِّمةِ
عبرَ تقاليدِ كلِّ الكفاحِ الطويلِ المسلَّحِ بالشعبِ
والبنديقيةِ
والزعماءِ
الذين استوى كلُّهم في خيانةِ أرضي
وشعبي
اذكري أنَّهم
ذبحوا بعضهم مرةً كي يخونوا
وأخرى
اذكري كي يخونوا
وخانوكِ يا أمَّتي كلَّ هذي السنينَ التي طفحتُ
بالقتالِ
وبالشهداءِ
وبالأغبياءِ
اذكري أنَّهم قاتلونا
اذكري . . كي يخونوا
فخانوا لكي يقتلونا
وصرتُ أنا في غمارِ البحارِ
وأوغلتُ بعداً

وَأنتِ عَلَى شَفْتِي غَنَاءٌ بَعِيدٌ
وَيَصْبِحُ أَكْثَرَ قَرَباً إِلَيْكَ
إِذَا حَمَلْتَهُ الرِّيحُ
وَأَعْدُو رَحِيلاً
رَحِيلاً
رَحِيلاً
وَلَكِنِ إِلَيْكَ . . وَعَنكَ . .
إِلَيْكَ
وَعَنكَ
إِلَيْكَ
أَصْرٌ إِلَيْكَ الرَّحِيلَ
وَلَوْ كَانَ عَنكَ
وَلَوْ كَانَ مَوْتاً جَدِيراً
وَلَوْ كَانَ مَوْتاً هَزِيلاً
فَفِي الْحَالَتَيْنِ أَمُوتُ لِأَجْلِكَ
جَوْعاً
وَنَفِيّاً
وَسَلاً
وَقِتْلاً
وَحَرِيْتِي أَنْتِ

حرיתי المسترقة
والمستباحة
والمستحقة
لي عندهم
ولدي
لديك
سلاحي الذي خبأته أيادي الرفاق
بعمان
والقدس
جيلاً
فجيلاً
فجيلاً
ليوم سنولد فيه جميعاً
بدون زعيم يخون.

(دمشق - حزيران 1972)

حالة اعتراف بالحب القديم

لأنِّي لم أكتبُ عن عينيكِ
ولم أطلعُ فوقَ جفونكِ قبلي الأولى
يقتلني ذنبي
يا أرضاً تعترضُ مساري
بعدَ ملايينِ الطرقاتِ الصعبةِ غيرِ المطروقةِ قبلي
بينَ المدنِ الحربيّةِ
والملاي بالفقراءِ
وبالسواحِ
وبالسادةِ
والغرباءِ
لأنِّي أقتلُ شيئاً في صدري
مغفرةً . .
أقتلُ حتى وجهي
وأشبحُ بعينيَّ بعيداً عن عينيكِ
وأقربُ منِّي إليكِ . . أنا
صدقاً
أتحدّثُ مثلَ حديثي قبل بلوغي السنة العشرين
خذي

قبلَ رحيلي عنك
إلى حيثُ العجْرُ الجوّالونَ
بوجه الإنكار التاريخي المجرمِ للإنسانِ
العجْرُ قديماً كانوا مثلي
عَشَقُوا . .
طُردوا . .
كانوا في بلد يشبهُ عينيكِ كثيراً
ويديكِ
وصدركِ
يا ويلَ فلسطينَ
وويلي
إن صرتُ مع العجْرِ الرُّحلِ
أَتَنقَلُ
أَتَسوَلُ حتّى الغربةَ
معدرةً
لم أكتبُ عن عينيكِ
ولكنّي قاتلتُ
لكي تصبحَ عيناكِ قراري
أَتخاذلُ
أرحلُ؟ كلا . . .

فعيونك في عينيَّ
وفي وجهي
في كفيَّ
وفي صدري
خلقتك في دائرتين
عذابي
والمنفى
خلقتك جسدي المفروش على أركان الشرفات
القائمة على جدران عمارات السادة
والملاك
البياعين حليب صغار القوم
البياعين بسعر الجملة - أيضاً - كل صغاري
وتراثي
والصور
التذكار
عن الأحباب
وعن قرينتنا المحتلة
والحارات الجبلى بالشهداء
على «جبل النزهة»
«والوحدات»

على كلِّ القممِ بعمَّانَ
وفي عمقِ الوطنِ المتواري
خلفَ ركامِ السنواتِ
المفعمة دموعاً
ودماءً
وجرائدَ
وكتابات
لم تدركهُ
ولا أعطته سوى الخدَرِ اليومي المتنامي
فوقَ فلسطينَ . . . وشعبِ فلسطينَ
على كلِّ الساحاتِ
وفي أنسجةِ الآهاتِ المتصاعدةِ على
أجنحةِ الغربيةِ
والأحزانِ
وفي بواباتِ المدنِ الغربيةِ
والشرقيةِ
أحكي . .
معذرةً . . إن كنتُ قسوتُ قليلاً
فأنا أتمثلُّ كلَّ الصوانِ
وكلَّ الشوكِ

وكلَّ الدَّمِ
وبعضَ حَرَابِ جِيوشِ العَرَبِ بلحمي
أيضاً، عَيْنِكَ الجَارِحَتَيْنِ
سوادِ رَدَائِكَ
هَذَا الفَحْمُ النَامِي شَجراً فَوْقَ جَبِينِكَ
يَا لَيْلِي
وَنَهَارِي
الزَّمَنِ الآتِي
أَعْتَرَفُ بِجُبِكَ
بِالْمُتَفَجِّرِ مِنْ عَيْنِكَ
وَتَارِيخِي
عَبْرَ السَّنَوَاتِ الأَلْفِ الحَبْلِي بِكَلِينَا
حَالَةً عَشِقُ لَا تَفْشَلُ
مَا زَالَتْ . . . لَكُنْ
بَيْنَ عَيُونِي . . . وَعَيُونِكَ
يَزْدَادُونَ صَفْوَفاً
وَسِلَاحاً
وَقَوِي تَتَكَسُّ
وَتَزْدَادُ بَعْصِرِ فَيْتِنَامَ ضَمُوراً
وَتَرَأْفُصَ نَيْكَسُونَ

تطعمه لحمك

آه . . .

أعجزُ أن أقرأ مستقبلنا الأقربَ

نؤكلُ في أروقة الخلفاء

نسحقُ تحتَ حوافرِ خيلِ الغرباءِ عن الأرضِ

وأحلامِ الإنسانِ

وأقسمُ . . .

أعرفُ كيفُ أحبُّ بصدقٍ

أصمُدُ هذي اللحظةَ

في قائمةِ الغرباءِ

الشهداءِ المنسيينَ

وأسقطُ في قائمةِ الإعلاناتِ عن التحفِ المفقودةِ

في حفرياتِ الآثارِ الدارسةِ

وفي قاعاتِ الشجعانِ على بيعكِ للسواحِ

لمن يبحثُ عن شُققٍ فرشتُ في القاهرةِ

وبيروتَ وعمانَ

وكلَّ المدنِ المسكونةِ بالفقراءِ

المحرومينِ من العملِ

ومن سكنى أفقرَ أحيائكِ

والمضغوظينَ بكلِّ أساليبِ السلطةِ

سجناً
وعذاباً
وقراراً بالموت
وتجويع الآباء
وتجويع الأبناء
وتعقيم الآباء
خذي حذراً منهم
وخذي قلبي
كي نعطي طفلاً سيقاتلُ
لن يعتذرُ
ولن يقبلَ عذراً
يا من أحببتك
لو عرفتُ أمِّي كيفَ؟
لهزّنتني فرحاً . . .
يا فرحي الراهنَ
والراجلَ
والمقبلَ في ذاتِ الوقتِ
لماذا؟
يحدثُ أن تشرقَ كي ترحلَ
أو أرحلَ

كيف تعانقني؟
لا تتلاشى ..
هي برهة حب أكبر مني
أوسع
أكثر صدقاً
وأشدُّ ثباتاً من قدمي المتعبتين
على طرقاتِ بلادي المسدودة دوني
بقراراتِ الجامعة العربية
والهيئات الدولية
والنادي الأمريكي
لا أعجز عن أن أصل إلى مفتاحك يا وطني
فالمفتاحُ على زناري
حرب الشعب
وقاتلتُ .. ولكن
أين أثبتُّ أقدامي؟
من هم أصحابُ الأصحاب؟
وكيف أوسعُ جبهةَ حربِ الشعب؟
وكيف أضيقُ جبهةَ أعدائي؟
كان كبارُ بلادي يصطافون
وكنتُ أقاتلُ ذاتي

وتشرذمتُ
انتحرت قافلتي
أو قُتلتُ
لا تبكي . .
يا ساهرة الليل عليَّ
ومن أجلي
ابتسمي
أتفاءلُ
أو أتشاؤمُ
أحزنُ
أو أفرحُ
لو عيناكِ الجارحتانِ توقفتا عن أن ترتحلا عني
اختصريني
أذوّبُ في ذرّاتِ البرقِ
وأصلُ إليكِ
وأسكنُ فيكِ دماً
وتراباً
وشتاءاً
وبحاراً
وجهُ القدسِ المتهدّمِ تحتَ الجرافاتِ

وتحت هداसा
والجامعة العبرية
والدوريات
وتحت مشاريع عمارات ذوي العاهات الفاشية
يا أنت . .
أحبك . . في وطني . . المدن العربية
والأرياف المستعبدة رجالاً
وجنوداً
ونساءً
وصغاراً
ومساحات
صدري خزان الحزن المتوحش
والمتوحّد
في الليل
وفي الأدغال وحيداً
وكبيراً
يتعرّف لليوم الأول جوعاً
يتشكّل وجهاً فوق الوصف . . مخافهم
لم تلمح بعضاً منه على سحنة شحاد
أو موأل

أكثرَ حزنًا من نهرِ الأردنِ المتحدِّرِ نحوَ البحرِ الميِّتِ
حملاً جثَّ الأحبابِ المقتولينِ على الشطِّينِ

تلاقينا

عيناك . . ورشاشي

يا غاليتي شدي الأشرعة إليَّ

إليَّ

إليَّ

فأنتِ على مرمى بصري

وعلى مرمى إصبع كفي

وعلى مرمى الرشاش الأخرسِ

ها إنيَّ

أستعبدُ في زمنِ الموتِ على قدمي أمِّي

وأذلُّ

أصيرُ حكاية بطلٍ قتلَ

ولم يتعلَّم من خبراءِ الحربِ . .

ولكنِّي

أعرف ما أحدثه من شرخٍ في مرآة العالمِ

أعرفُ أنني مرتبطُ الجسدِ بكلِ عروقِ الصخرِ لديكِ

بكلِّ الناسِ البسطاءِ

التواقينِ إلى أن تصبحَ حراً

يا وطني
لُحِبَّ الأَحْيَاءَ
كما أَحْبَبْتَ الأَطْفَالَ الشَّجْعَانَ
وأَحْبَبْتَ الشَّهْدَاءَ
شَهِيدَكَ يُحْمَلُ فِي النَعَشِ العَرَبِيِّ
يَقُومُ عَلَى الأَكْتافِ
يَدِيرُ عَلَى المَشْهَدِ عَيْنِيهِ
يَدُقُّ عَلَى خَشْبِ التَّابُوتِ
وَيَسْأَلُ حَمَّالِيهِ عَنِ القَاتِلِ
يَتَرَجَّلُ
يَخْلَعُ عَنْهُ الخَشْبَ
وَيَأْخُذُ وَجْهَتَهُ لِلقَرِيَةِ
يَذْكُرُ كُلَّ حِجَارَتِهَا
وَيُبَادِرُهَا
و«عمايرها»
وَيَتَذَكَّرُ أَنَّكَ تَتَنظَّرِينَ إِيَابَ الفَارَسِ
إِذِ يَتَغَلَّغَلُ فِي طَيِّبَاتِ الظُّلْمَةِ خَطُوعُ عِيُونِكَ
بِشَجَاعَةِ كُلِّ عَذَابَاتِ فِلَسْطِينَ
وَفِلَاحِ فِلَسْطِينَ
وَعَمَّالِ فِلَسْطِينَ

ومتعبة فوق الأسفلت . . أراك
وفوق الإعلانات
وجبهات البارات
وأبواب الغرف السرية
والعلنية
في مدن السلطة
تحت زنازين كلاب السلطة
والزعماء الدجالين
لأنني لم أسقطهم بعد
ولم أكتب عن عينيك
لسوف أظل أقاتل
كي أقتل
وأعيش
وأقتل
وأعيش
وأقتل
وأعيش
لتحضنني عينك
وتأويني يقظاً طول الليل .

(تموز - 1972)

بيان علني في الدعوة إلى كتابة منشور

- أغادرُ وجهي - الذي أرهقته المساحيقُ -

والخشباتُ

التي حملتني زماناً

تعرتُ تفاصيله قريّةً تعبتُ

من تنقلها بين شطّين . . حبي

وهجري

وظلّتُ

وما غادرتُ جذرها

وتقاتلُ

- يا أيُّها الغرباءُ

الطواحينُ

والحبُّ

والماءُ

- صرنا دقيقاً

عجينا

وخبزاً

أكلنا

فما هضمنا البطونُ المهدلةُ اللحمِ

- إنِّي أغادرها

والدويُّ يعاصرُ صوتي

وينهيه

أرتعشُ الآنُ

والكلماتُ التي سبقتني إليكمُ

تمدُّ على فاصلِ الليلِ جسراً

توقَّفتُ

واحترقتُ كتبي فوقَ دجلةَ

والقدس

إنِّي أنقلُ خطوي شجاعاً كما أنبتني

على شفرةِ السيفِ

أهتزُّ

- لا بأسَ

- وافرد ذراعيكَ

- هذا جناحُ

وهذا جناحُ

- على الدرجاتِ انحدرتُ

انحدرتُ

خلعتُ الكواليسَ عن كتفيَّ

وصلتُ إلى الأرضِ
هذا الذي بينكم وجهكمُ
أقرؤوه

ففي بعضه حبكمُ
فيه تاريخكمُ
بعضُ أحلامكمُ نضجتُ من تقاسيمه
ذكرياتُ قواعدكمُ

والميليشيا

الميليشيا

الميليشيا

- سجوناً

ومقبرةً

وفلولاً

تفتّش عن وعدّها - المجهضِ السمّتِ - فيكمُ

أقولُ لكمُ :

إنّه وجهكمُ

يخرجُ الآنَ من كلّ هذي الوجودِ التي وسمتها

الندوبُ

- انصتوا

- ها هو الصوتُ يأتي

ويجتازُ كلَّ العراقيلِ
والمدنِ النائمتِ على شاطئِ الموتِ
- يا وجهكم . . فرحي
ليس بيني وبين الأُحبةِ فاصلةٌ
أو ستارٌ
- هو المسرحُ الآن يسقطُ
كفوا
انتهت لعبةُ الضوء والصوتِ
يا أيُّها المتعبونَ من الضجَّةِ العربيَّةِ
- عاشَ الفدائيُّ
فليذبحِ اليومَ
فليذبحِ اليومَ
أو فاذبحوه
- هوى
- انتهوا
- أينَ كانَ الناديُ ؟
وأينَ اختفى ظلُّه ؟
- ظلمةُ الصالةِ انحسرتْ برهةً
عن جيبني
وعنكم

- فضيحتنا . . انفجرتُ حزمةُ الديناميتِ

- تناثرَ في السقفِ

تحتَ المقاعدِ

- انتبهوا

إِنَّهَ أَنْتَ

أَوْ أَنْتَ

أَوْ أَنْتَ

- إِنْ صَفَّقَ الْكَلُّ لِلْمَوْتِ

فَالْكَلُّ لِلْمَوْتِ

- الْكَلُّ لِلْمَوْتِ

مكتوبةٌ آتِي في العيونِ التي لا ترى الموتَ من حولكم

- احبسوا الآنَ أنفسكمُ

- إِنِّي أَتَخَطَّى التَّوَابِيْتَ فِيكُمْ

ومنكمُ

ولا تَقْرؤوا الصَّحْفَ اليَوْمَ

لم ينشروا صورتي

- عبثاً

- لستُ في صفحةِ الوفياتِ

ولا في العناوينِ

أو تحتَ بابِ الأعاجيبِ

والأحجيات
 ولا ضمنَ كادرِ بيعِ الأراضي
 وبيعِ النساءِ
 - انتهتُ لعبةُ المخرجِ العبقريِّ
 - أرى الصالةَ الآنَ تطفحُ بالدمِ
 حذرتكم أنكم تُقتلونَ
 انفعلتمْ
 ظننتم بأنِّي أمثلُ مذبحتي قربكمْ
 ما عرفتم بأنكم تذبحونَ معي
 آتيني الكلُّ
 والكلُّ للموتِ
 - لكن . . .
 - وتبقى الممراتُ فارغةً في الظلامِ القديمِ
 - نهضتُ على طرفِ الضوءِ
 أنصتُ
 ثمَّ ارتميتُ
 وألصقتُ أذني إلى القاعِ - وإنِّي أذكركمْ -
 واستمعتُ إلى زمجراتِ الجنازيرِ
 حدقتُ خلفَ زوابعِ سيناءَ
 غنيتكمْ : طليقةً . . . طليقتينِ

انتبهتم قليلاً
وقائلكم قالَ
- يعبثُ بالنارِ
- صاروا هنا في ضفاف القنالِ
وفوقَ سهولِ الشمالِ
وغربَ الشريعةِ
يبتلعونَ إذاعاتنا
فقرةً . . . فقرةً . . .
وشعاراً . . . شعاراً
- يقيمونَ بين شوارعنا قوسَ نصر
ونار
كما في تقاويمِ أيلولَ
تنهضُ عمَّانُ في وجههمُ
وتقاتلُ
- ذاكرتي جبهتانِ
- الجريمةُ . . . الصمتُ
- هل تذكرونَ فلسطينَ؟
- ظلَّ القتالُ على الجبهتينِ الجريمة . . .
والصمتُ
- عن الخيلِ ما أسقطتنا الخديعةُ

- أسقطتنا التحيةُ
لكنَّما اختلطتْ خيلنا بالترابِ
وبالفقراءِ
- أصارحكمُ أنَّهمُ أعلنوا موتنا مرتينِ
وسبعاً
وعشرأً
أصارحكمُ أنَّهمُ شاركوا الليلة . . . الآنَ في دفننا
سوروا بالحديدِ
وبالوردِ
والصحفِ الجاهليةِ
والنارِ
أضرحةَ اللاجئِينَ نهارأً
فكانوا يقومونَ ليلاً
ويخترقونَ الحصارَ - بدايتهم - واحداً
واحداً . . .
وثلاثاً . . . ثلاثاً
يدورونَ بينَ الحوارِ
على هيئةٍ لا تثيرُ الفضولَ
ولا الدهشةَ
- انتبهوا

- إِنَّهُمْ بَيْنَكُمْ
هل تَشْمُونَ رائحةَ الجوعِ والدمِّ؟
فليكشفِ الآنَ كلُّ الحضورِ الصدورَ
هنا الجوعُ
والدمُّ
والوطنُ العربيُّ الممزَّقُ
فلنكتبِ الآنَ منشورنا البكرَ للمرةَ الألفَ.

(بيروت - 1972 / 11 / 23)

الوقوف . . . على الحدِّ الفاصل

أُسْمِيكَ . .

... ..

ماذا أُسْمِيكَ ؟

مخفورةً في الذهابِ

ومغدورةً في الإيابِ

ندىً

أو دماً

تارةً يتخزَّنُ تحتَ الترابِ

وأخرى سحاباً يغطِّي سما الضفتينِ

وما بين نارينِ تنتفضينِ

ويساقطون فرادى

وجمعاً . . . رفاقي

تضيعين . . حتى أساميكِ

ما بينَ محترفِ الزيفِ

والزيفِ

في زمنٍ بدويٍّ

يناقشُ موضوعَةَ الاحتلالِ

ويلعبُ دورَ المخدِّرِ . . في المذبحةِ

أَعْمَسُ كَفِّي بِأَشْلَاءِ أَهْلِي
وَفِي جَسَدِ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ الْمَسْجِي
عَلَى طَوْلِ تِلْكَ الْمَسَافَةِ مَا بَيْنَنَا
حَيْثُ كُنْتُ . . أَكُونُ
وَحَيْثُ تُصَيِّرِينَ . . . أَنْشَلُ ضَلْعِي
وَأُكْتُبُ حَرْفًا
وَحَرْفًا
أَعَاشِرُ مَعْتَقَلَاتِ الْبِدَاوَةِ
وَالْغَزْوِ
فِي حَالَتَيْنِ
تَدَاخَلْتُ
صَوَّرْتُ بِالْعَيْنِ عَرْضًا طَوِيلًا لِكُلِّ الْعَصِيِّ
وَكُلِّ الْكِرَابِيحِ
سَجَّلْتُ فِي جَسَدِي مَتَحَفًا
فِيهِ كُلُّ صَنُوفِ الذَّخِيرَةِ
مَاذَا أُسَمِّيكُ ؟
بَأَنِي أُسَمِّيكُ بِاسْمِي
وَأَنْتِ الْمَلَائِينُ
وَالْحَبُّ
وَالْأَرْضُ

والليلُ

ما بينَ قطبينَ

وجهي . . . وعكاً

يقولونَ . . .

ماذا يقولون ؟ قبل الأناشيدِ

خلف الأناشيدِ

أو بعدها

في المنابرِ

أو تحتها

في المواخيرِ

لا تنصتي

إنني إذ أُحاصرُ ما بينَ شطينِ

أقتلُ بالصمتِ والصخبِ

أقتلُ داعيةً للتخطي من الأرضِ

للأرضِ

أقتلُ تحتَ شعارِ مكافحةِ الخارجينَ على جدولِ

الضربِ

والسحقِ

أقتلُ باسمِ القضاءِ على الأوبئةِ

وأقتلُ في وطني

آه . . في وطني
ألف عمَّانَ قائِمةٌ
ظهرها في جبينِ فلسطينَ
أمَّا السكاكينُ
والجندُ
والمدفعيَّةُ
والطائراتُ
فلا تخجلي
إنَّها أسرعُ في الكمينِ الأخيرِ
وتتظنُّ الأمرَ من سترةٍ لمعتْ كلُّ أزرارها
بالمجاعة . . والدمُ
إنِّي أرى مقتلي قابَ قوسٍ وأدنى
فقومي
أناديك بالصوتِ
والموتِ
ومن كلِّ ما احتلَّ منِّي
ومن كلِّ ما ظلَّ منَّا
ومن صدرِ أمِّي
ومن مأزقِ المرحلةِ
أراك

وإنِّي أرى خلفَ وجهي . . . وجوهاً
تداري به ذلّها
إنّهم يتقنون التَّنكّرَ
فالكرنفالُ الذي كرسوه طقوساً
يصيرُ تقاليدَ في وطنٍ ضيَّعوه
وضاعتُ تقاليدُهُ
لستُ منهم
فهم بعد ما كانوا
وظلّوا
طوالَ زمانِ الهزائمِ
والأمنياتِ
وعبرَ تطوُّرِ حربِ الإذاعاتِ
ظلّوا . .
إلى القدسِ لافتةً
ولهاثاً إلى الغلّةِ الكاذبةِ
وإن قلتُ: يا وردةَ الدمِ خلّفتهم يهدرونَ مصيري
وغادرتهم
صرتُ منهم
وإن قلتُ واكبتهم
صرتُ منهم

وما بين هذين تُنصبُ مشنقتي

والمذابحُ

كلُّ المطاراتِ مسدودةٌ

والمعابرُ

ما بين هذين

مُتَّهَمٌ بالتخليِّ عن النومِ

والتأمينِ

مُتَّهَمٌ بالهزيمةِ

مُتَّهَمٌ بالجريمةِ

لكنني بين هذين أصمُّ

أشحدُ صوتي

وأسلحتي

وعذابي

أناديك . .

ماذا أناديك ؟

قطرَ الندى

كلِّما أمطرتْ مقلتكِ . . وقلبي . . دمي

أرعتُ في جبالِ الخليلِ الخاليا

وشرقَ الشريعةِ

فوقَ تخومِ بلادي

أرى الأرضَ خارطةً عمَّرتها الحرائقُ بالحربِ
بالثورةِ العربيَّةِ
من ساحةِ المغربِ العربيِّ
إلى المشرقِ العربيِّ
على جبهةِ القصرِ
ألقاكِ بعدَ محاربةٍ في الطريقِ إلى الناصرةِ
وإنِّي أرى فقراءَ القرى
والحواري
غداً يخرجون إليَّ
وبيرقهمُ بيرقي
وشعاري من النهرِ للبحرِ
للبحرِ
للبحرِ
حيفاً كبيروتَ
واللُدُّ كالقاهرةِ
سألتكِ يا جوهرَ الحزنِ
والنارِ
ماذا يفرِّقُ بينَ بنيكِ
وبينَ الأقاليمِ
وحدنا توأمانُ . . البطولةُ

والصبرُ
فرقنا توأمان . . العصاباتُ
والسادةُ الجانحونَ
إلى ذبحِ مدريدَ
عبرَ مذابحِ كلِّ البلادِ التي يحكمونَ
البلادِ التي يذبحونَ البناتِ الصغيراتِ فيها
وتحتَ شعارِ
يقولُ : نجنبها المذبحةُ
سألتك بالدمِ
هل شاركوا الدّمَ مجراهُ
أم شاركوا الأمراءَ التواقيعَ
والدخلاءَ المشاريعَ
والكأسَ
والوقوفاتِ المذلةِ
في مجلسِ الأمنِ
قربَ العظامِ التي يعرضونَ على المائدةِ
أحاوركَ الليلةَ اتفقوا
أنْ يخيطوا لهم علماً
من بقايا ثيابكِ
أنْ يغسلوها

لتخرجَ بيضاءَ من غيرِ أبنائِكَ الشهداءِ
ومن غيرِ بصماتِ كَفِّكَ فيها
وعمرِكَ فيها
ورائحةُ الدَّمِ
والعشبِ
والجمْرِ
والطرقِ المترباتِ
لتخرجَ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ - كما يزعمونَ -
تؤهلُّهم أنْ يسوقوا صغارَ بلادِي إلى المقبرةِ
وها . . . إنَّني الآنَ أرفعُ كُفِّي
أقرؤوا فيه مجرزةً
ونذيراً
أحذِّرُ من كلِّ جيشٍ يموتُ من البردِ
تحتَ الحريقِ
وتحتَ الشعاراتِ
والامتيازاتِ
والجوعِ للعبةِ الخاسرةِ
وأندركمُ أنْ نازلةً تتخفى وراءَ الحجارةِ
والطاولاتِ
وفي لغةِ الخطباءِ
وفي لغةِ السفهاءِ

وفي لغة الحكماء
وفي الصحف الرائجة
هنا أنتضي الآن صوتاً ذيحاً
يحذّر من كل بوابة للخروج سوى الحرب بالشعب
إني أناديك حربي
وما بين موتك
والأرض
ما بين نصرك
والأرض
أن تُسقطي الأدياء
التوابيت
أن تربطي حول زندي شرايين قلبك
أن تمنحيني عظامي جسوراً
على الماء
أن تعبري فوقنا مرتين
إلى الغرب
والشرق
بالشعب
بالعشب
والأسلحة .

(بيروت 30-12-1972)

هوامش :

- (*) استخدم الشاعر بعض المفردات الأجنبية للدلالة على مرحلة سياحية سوف تشهدها بعض الأقطار العربية .
- (1) أول شهداء فتح ، استشهد على يد القوى المضادة للثورة في الأردن بداية الانطلاقة .
 - (2) استشهد على يد القوى المضادة للثورة في لبنان العام (1968) .
 - (3) استشهد في هجوم على التلة الحمراء بالغور الأوسط العام (1970) .
 - (4) استشهد على يد القوى المضادة للثورة في الأردن بعيد أيلول (1970) .
 - (5) الشاعر الشهيد عمر فهمي استشهد في عملية بتاح تكفا (1971) .
 - (6) شهيد عملية اللد (1972) .
 - (7) أهلاً وسهلاً بالفرنسية .
 - (8) شكراً بالعبرية .
 - (9) كيف حالك يا سيدي بالفارسية .
 - (10) جيد بالفارسية .
 - (11) اسمعوا بالإنجليزية .
 - (12) تفضل بالعبرية .
 - (13) نحن ننصت بالإنجليزية .
 - (14) قرية الشاعر .

الفهرس

17 - 7 سادن أحد الثقافة الفلسطينية - مراد السوداني

102 - 19 وسام على صدر الميليشيا

- 21 - بطاقات للعيد
- 28 - كلمات من البعد الرابع
- 35 - حكاية ريفية
- 39 - الرجال والبحر
- 49 - عصر البحر
- 50 - عرس الأرض
- 59 - أعياد اللّام
- 65 - أصداء الشجرة المقطوعة
- 73 - نيسان سمفونية
- 82 - القاع في الغربية
- 87 - البكائية الواحدة والعشرون لشهر اسمه أيار
- 95 - وسام على صدر الميليشيا

153 - 103 نقوش محفورة على مسلة الأشرفية

- 105 - من مسافر
- 110 - من دفتر (1906)
- 115 - من تجربة الصعود
- 122 - من دفتر (1968)
- 127 - من دفتر (1970) - بيسان والشهيد
- 133 - من دفتر (1970) - مؤال
- 137 - نقوش محفورة على مسلة الأشرفية
- 140 - إلى أمي ... فاطمة حسين
- 143 - آخر برقية إلى (أبو علي إباد)
- 145 - المرشد والحصاد

270 - 155

تغريبة خالد أبو خالد

157

- المهلهل

170

- سيف بن ذي يزن

191

- عنتره

218

- هلال

245

- شهرزاد في الليلة الثانية بعد الألف

360 - 271

أغنية حبّ عربية إلى هانوي

273

- أمي ... وكلمات السرّ العبرية

278

- في البحث عن قطار آخر الرحلات

284

- عن أبي ذر

288

- أغنية حبّ عربية إلى هانوي

311

- عودة السندباد

328

- حالة اعتراف بالحب القديم

341

- بيان علني ... في الدعوة إلى كتابة منشور

350

- الوقوف على الحدّ الفاصل

